الباب الأول

مصر قبيل قيام الأخشيد

obeikandl.com

obeikandl.com

مصر قبيل قيام الاخشيد

(١)

زوال الدولة الطولونية وعودة مصر إلى الخلافة العباسية

عادت مصر ولاية تابعة للخلافة العباسية فى سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م) وذلك على أثر سقوط الدولة الطولونية على يد القائد العباسى محمد بن سليمان الكاتب . ولما دخل هذا القائدمدينة الفسطاط دعا على المنابر للخليفة المكتفى بالله[١] وكتب اليه يبشره بفتح مصر .

وأمر محمد بن سليمان باحراق القطائع فأحرقت وأطلق سراح المسجونين ونهب جنده مدينة الفسطاط واستباحوا النساء وأتوا من الفظائع والمنكرات ما تقشعر له الأبدان . بل إن قائدهم نفسه كان مضرب المثل فى أخذ المصريين بالشدة والقسوة وحسبنا ما كتبه أبو المحاسن بن تغرى بردى فى هذا الصدد . قال : « كان محمد بن سليمان هذا لا يسمى باسمه ولا بكنيته وما كان يدعى إلا بالأستاذ ، وكان حكمه فى أهل مصر يضرب أعناقهم ويقطع أيديهم وأرجلهم جوراً ، وتمزيق ظهورهم بالسياط وصلبهم على جذوع النخل ونحو ذلك من أصناف النكال ، ولا زال على ذلك حتى رحل عن مدينة مصر فى يوم الخميس مستهل شهر رجب من سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، واستصحب معه الأمير شيبان بن احمد بن طولون . . . . وبنى عمه وأولادهم وأعوانهم حتى إنه لم يدع من آل طولون أحداً ، والجميع فى الحديد إلى العراق وهم عشرون إنساناً ، ثم أخرج

---

(١) الولاة والقضاة ص ٢٤٧ ، وينص الكندى على أن محمد بن سليمان دعا لأمير المؤمنين المكتفى بالله وحده ، لأن الدعاء للخليفة على المنابر لم يبطل خلال الدولة الطولونية وإنما كان يدعى للأمير الطولونى معه . راجع عن العلاقة بين بنى طولون والخليفة العباسى : Zaky M. Hassan Les Tulunides pp. 155.

قوادهم إلى بغداد على أقبح وجه فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر وخلت منهم الديار وعفت منهم الآثار وحل بهم الذل بعد العز والتطريد والتشريد بعد اللذ ثم سيق جماعة من أصحاب شيبان إلى محمد بن سليمان ممن كان أمنهم فذبحوا بين يديه »[١] .

وإذا جاز لنا ان نفسر هذا العنف بأنه من الظواهر التى تصحب فترات الانقلاب فيلوح أنه يشهد بأن المصريين كانوا لا يزالون يؤثرون حكم بنى طولون على حكم الولاة التابعين للدولة العباسية تماما والذين لم يكن لهم أى حظ من الاستقلال . والحق أن شعور المصريين هذا يمكن استنباطه من لهجة المؤرخين المصريين — ولا سيما أبو المحاسن[٢] — فى استهجان الفظائع التى ارتكبها « الاعراب الخراسانية من جنود محمد بن سليمان » . وبعد أن استقر محمد بن سليمان فى مدينة الفسطاط اتخذ بعض الاجراءات لتأمين البلاد وضمان سيادة الأمن فأمر باخراج الأعراب الذين قدموا معه وساعدوه على القضاء على الدولة الطولونية ، كما عمل على تفريق القواد الطولونيين الذين خرجوا على بنى طولون فى نهاية حكمهم فبعث بطغج بن جف والياً على قنسرين وأرسل معه طائفة من جند بنى طولون وعين بدر الحمامى والياً على دمشق[٣] واستطاع بذلك أن يكافئهما على معونته فى حملته على مصر ولكنه فى الوقت نفسه أبعدهما عن وادى النيل كما أبعد سائر قواد بنى طولون ومواليهم .

ثم خرج محمد بن سليمان من مصر فى بداية شهر رجب من سنة ٢٩٢ هـ (سنة ٩٠٥ م) وأخرج معه كل من بقى فيها من أتباع بنى طولون ومواليهم وكبار الموظفين فى دولتهم وسار إلى دمشق ثم حلب حيث وافاه رسول الخليفة يطالبه بتسليم ما كان معه من الأموال والخيل والمنسوجات النفيسة والذهب وغير ذلك مما حمله من مصر وقد قدر ما اضطر إلى تسليمه من الأموال بنحو مليونى دينار (نحو مليون جنيه)[٤]

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٣٩

(٢) المرجع نفسه ج ٣ ص ١٣٩

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤٨

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٦ — ١٤٧

ولسنا نظن أن فى هذا التقدير شيئاً كثيراً من المبالغة التى ألفناها عند المؤرخين فى العصور الوسطى .

وقد اختلف المؤرخون فى ولاية محمد بن سليمان على مصر فمنهم من لا يعده من الولاة بل يذكره بوصفه القائد الذى قضى على حكم بنى طولون وأعاد مصر إلى حظيرة الدولة العباسية ، وأصحاب هذا الرأى يؤيدونه بأن الخليفة المكتفى بعثه لقتال الدولة الطولونية ولم يوله على مصر ولما بلغه فتحها ولى عليها عيسى النوشرى ، ولكن من المؤرخين من عده والياً عليها « بحكم الفترة القصيرة التى صرف فيها أمورها »[1] .

---

(١) المرجع نفسه ج ٣ ص ١٤٤

(٢)

ثورة ابن الخليج

بعد أن انتقل الحكم فى مصر من الطولونيين إلى العباسيين على يد القائد محمد بن سليمان ورد كتاب الخليفة المكتفى بولاية أبى موسى عيسى بن محمد النوشرى عليها فأرسل اليها هذا الوالى نائبا عنه ، قدم اليها فى ١٤ من جمادى الأولى سنة ٢٩٢ هـ ثم وصل إليها عيسى النوشرى نفسه فى ٧ من جمادى الثانية من السنة نفسها [١] . ولسنا ندرى لماذا بادر هذا الوالى بارسال نائب من قبله مع أن محمد بن سليمان كان لا يزال يصرف الأمور فى البلاد بوصفه قائد الحملة العباسية . ولعله أراد بذلك أن يضع حدا لهذا الحكم العسكرى . ومع ذلك فالراجح أن محمد بن سليمان لم يفقد سلطانه حين قدم نائب النوشرى وإنما سلمه بعض الأعمال وبقى إلى أن وصل النوشرى نفسه فاستقبله وخلع عليه [٢] .

وقد كان النوشرى من القواد الذين أتوا إلى مصر مع محمد بن سليمان للقضاء على الدولة الطولونية ، وبعد أن تم زوال هذه الدولة خرج عيسى النوشرى نحو العراق ولكنه لم يكد يصل إلى دمشق حتى وافاه كتاب المكتفى بولايته على مصر فعاد اليها [٣] .

وقد قدم عيسى إلى مصر قبل خروج محمد بن سليمان منها وكانت مدة إقامة محمد بن سليمان فى مصر أربعة أشهر خرج بعدها إلى الشام مع جنده وبعض فلول الجيش الطولونى . وقد مر بنا أن رسولا من قبل الخليفة لقيه فى الشام برسالة من دار الخليفة ليسلم ماغنمه فى مصر من مال وخيل ومنسوجات نفيسة . وطبيعى أن هذا الحادث كان له أسوأ الأثر فى نفس القائد المنصور وعند حاشيته . وعلى كل حال فقد بادر

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٥٨

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٥

(٣) المرجع نفسه ج ٣ ص ١٤٥

بالانفصال عن ركبه ضابط من الجيش الطولونى اسمه ابن الخليج[١] . أو ابراهيم الخليجى[٢] أو محمد بن على الخليج[٣] أو محمد بن على الخلنجى[٤] . والتف حول هذا الضابط عدد كبير من الجند والضباط الذين كانوا فى خدمة بنى طولون قبل زوال دولتهم ، والذين كانوا لايزالون يذكرون عظمة هذه الدولة ويكرهون أن يغادروا مصر ويخشون ما كان ينتظرهم فى العراق . وكان ابن الخليج قبل سقوط الدولة الطولونية من صغار الضباط فى قسم من الجيش الطولونى كان يرأسه القائد صافى الرومى الأصل[٥] .

خرج ابن الخليج من ركب محمد بن سليمان وبايعه من التف حوله من الجند والضباط قائداً عليهم وعقدوا العزم على إحياء الدولة الطولونية وانضم إليهم أنصار جدد وعم الجميع شطر مدينة الرملة فهزموا واليها ، وأمر ابن الخليج بالدعوة على منابرها فى يوم الجمعة للخليفة ومن بعده لابراهيم بن خمارويه بوصفه أميراً للبلاد ومن بعدهما لنفسه بوصفه نائباً عن ابراهيم .

وهكذا نرى أنه أراد أن يبعث دولة الطولونيين وأن يحتفظ بالتبعية الإسمية للخلافة العباسية . ومع ذلك فان قيام ابن الخليج بمثل هذا العمل فى تلك الظروف كان معناه الخروج على الخليفة . ولسنا ندرى هل كان ابن الخليج مخلصا فى دعواه لبنى طولون أم كانت دعواه لابراهيم بن خمارويه (الذى كان حينئذ أسيراً فى بغداد) — ستارا لمطامعه الشخصية — ومهما يكن من الأمر فقد أعجب كثير بشجاعته وإقدامه فزاد عدد أنصاره ، ولما علم الوالى عيسى بن النوشرى بخروج ابن الخليج جهز جيشاً لمقابلته على حدود مصر الشرقية والتقى الجيشان عند غزة وكان النصر لابن الخليج فاتجه إلى العريش ثم إلى الفرما وتتابعت انتصاراته على فلول الجيش المنهزم ، فاضطر النوشرى إلى إعداد جيش آخر ضخم العدد والعدة ، وسار على رأس هذا الجيش إلى مدينة

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٥٩

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١١ ص ٣٩٢ ؛ وابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣١١

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٧

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٧

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٧

العباسة [١] لملاقاة ابن الخليج ، ولكنه هزم ولم يجد بدا من الجلاء عن الفسطاط ونزل بجيشه عند الجيزة .

ودخل ابن الخليج مدينة الفسطاط فأحسن الشعب استقباله ودعا له الإمام على المنبر بعد الخليفة وابراهيم بن خمارويه ، وعمل ابن الخليج على تهدئة الأمور والقضاء على الفوضى فى البلاد ، وأفلح فى جمع الضرائب ، وفى دفع رواتب الموظفين والجند ، وما لبث أن استولى على الإسكندرية واستقر له الأمر فى العاصمة والدلتا ، ولكنه رأى أن عيسى النوشرى لا يزال واليا على مصر من قبل الخليفة ، وان يكن قد فر بفلول جيشه فى اتجاه الإسكندرية ، فبعث اليه جيشا بقيادة خفيف النوبى ، ثم تابع ابن الخليج إرسال الامداد إلى خفيف النوبى برا . كما أرسل اليه محمد بن لجور فى ست مراكب بالسلاح والرجال ، ويظهر أن الحرب كانت سجالا بين الجانبين ، جانب عيسى النوشرى ، وجانب خفيف النوبى وابن لجور ، ولم ينتصر فيها فريق على الآخر إذ عاد ابن لجور إلى الفسطاط ، وانصرف عيسى النوشرى إلى تروجه [٢] ، وهناك وقعت معركة بين جيشه وجيش خفيف النوبى هزم فيها خفيف وعاد بعدها إلى الفسطاط [٣] .

ولما علم الخليفة المكتفى ، بثورة ابن الخليج أرسل جيشا بقيادة أبو الأغر وكان فى الجيش الأمير أحمد بن كيغلغ وهزم ابن الخليج هذا الجيش شر هزيمة فى أوائل المحرم سنة ٢٩٣ هـ [٤] . وقد عظمت تلك الهزيمة على الخليفة . فأرسل جيشاً ثانيا

---

(١) العباسة بلدة صغيرة موقعها إلى الشمال الشرقى من مدينة بلبيس الحالية سميت باسم عباسة بنت أحمد بن طولون التى شيدت فيه قصراً نزلت به قطر الندى بنت خمارويه فى طريقها إلى العراق عند زواجها بالمعتضد . أنظر ياقوت : معجم البلدان ، مادة العباسة .

(٢) تروجه : بالفتح ثم الضم وسكون الواو وجيم . هذه القرية درست مساكنها الآن ومحلها كوم تروجة بحوض تروجة بأراضى ناحية زاوية صقر بمركز أبى المطامير بمديرية البحيرة . أنظر : ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين ص ١٢٢ و ص ٢٢٦ وياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣٨٤ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٠ حاشية رقم (٣) وابن الجيعان : التحفة السنية ص ١٢٤

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٥١

(٤) المرجع نفسه : ج ٣ ص ١٥٣

بقيادة فاتك المعتضدى ، كما أرسل جيشاً بحرياً بقيادة دميانة ، وقد التقى فاتك مع ابن الخليج بالقرب من النويرة[١] ، ويروى أن أربعة آلاف من جند ابن الخليج انضموا إلى جيش الخليفة . وعلى كل حال فقد اضطر ابن الخليج إلى التقهقر ، وتخلى عنه كثير من أتباعه فعاد إلى الفسطاط واختفى عند صديق له ، ولكن خانه هذا الصديق وكشف أمره فقبضوا عليه فى رجب سنة ٢٩٣ هـ بعد أن دام سلطانه نحو سبعة أشهر وعشرين يوما[٢] .

وأخذ ابن الخليج إلى بغداد ، ووقف بين يدى الخليفة العباسى فعنفه ، ثم طيف به وبأصحابه على ظهور الجمال فى بغداد ، ثم قتل شر قتلة[٣] .

ولا يمكننا أن نفسر نجاح ابن الخليج وتحديه للحكومة المركزية فى بغداد دون أن نأخذ بعين الإعتبار تحمس الشعب المصرى ضد تلك الحكومة التى قضت على دولة لها فى مصر طابع قومى ، وكانت الأموال المصرية تنفق على يدها فى مصر ولا تتسرب إلى بيت مال الخليفة وجيوب كبار الموظفين فى بغداد ، فضلا عن أن تخريب القطائع ترك ألما وحسرة فى نفوس المصريين .

على أن فشل ابن الخليج زاد فى سوء الحالة التى كانت سائدة فى مصر منذ سقوط بنى طولون ، ولاسيما أن النزاع بينه وبين عيسى النوشرى ألقى بالبلاد فى هوة من الفوضى وعدم الاستقرار . وفى ذلك يقول أبو المحاسن[٤] : « فانه — أى ابن الخليج — أراد أخذ ثأر بنى طولون والانتصار لهم غيرة على ما وقع من محمد بن سليمان الكاتب من إفساد الديار المصرية فوقع منه أيضاً أضعاف مافعله محمد بن سليمان الكاتب وكان حاله كقول القائل :

رام نفعا وضر من غير قصد ومن البر ما يكون عقوقا

(١) إحدى قرى بنى سويف .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٥٢ — ١٥٤ ، والكندى ، الولاة والقضاة ص ٢٦٢

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٦٣ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٥٤

(٤) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥٥

(٣)

الحلقة الاخيرة من الولاة العباسيين فى مصر

ذكرنا أن أول وال حكم مصر من قبل الخليفة بعد زوال الدولة الطولونية هو عيسى النوشرى . وفى ولايته حدثت ثورة ابن الخليج وقد أوجزنا الكلام عليها فى الصفحات السابقة . ونضيف هنا أن فى ولايته فى عهد الخليفة المكتفى ظهر أمر عبيد الله المهدى ، وكان أبو عبد الله الشيعى يدعو له فى المغرب ، وحاول الخليفة القبض عليه ولكنه هرب هو وابنه أبو القاسم نزار الذى ولى بعده وتلقب بالقائم .

وقد خرج عبيد الله المهدى من الشام مع ابنه ومعه خاصته ومواليه وعقد العزم على الاتجاه إلى بلاد المغرب . ولما وصل إلى مصر استتر بزى التجار . ووصلت إلى النوشرى كتب الخليفة بوصف المهدى والأمر بالقبض عليه وعلى كل من يشبهه . ويظهر أن بعض خاصة هذا الوالى كان متشيعا فأخبر المهدى بذلك وأشار عليه بالرحيل عن مصر فبادر المهدى بمغادرة البلاد . أما النوشرى فقد فرق الرسل فى طلبه وخرج بنفسه فلحق به وقبض عليه . ولكنه أطلق سراحه ، ويقال إنه رق لحاله وعطف عليه كما يقال أيضا ان النوشرى لاحظ من بعض أعماله أنه ليس شخصا مريبا وربما شجعه هذا على إطلاق سراحه . ولا نستطيع تعليل ذلك تماما ومن المحتمل أن مما دفع عيسى النوشرى إلى مخالفة أمر الخليفة رشوة نالها من المهدى الذى كان يحمل معه أموالا كثيرة[1] . ولعله تأثر أيضا بوساطة بعض خاصته الشيعيين ، وعلى كل حال فقد أصبح المهدى هذا أول الخلفاء الفاطميين وأسس الدولة الفاطمية التى كان مركزها فى البداية مدينة القيروان .

وعلى أثر تأسيس هذه الدولة الفاطمية فكر المهدى فى غزو مصر وأخذ يضع الخطط لذلك . وهذا طبيعى لدولة فتية تريد أن تنافس بغداد ، إذ أن بلاد المغرب فقيرة بالنسبة لمصر التى تتمتع بالثروة الطبيعية والرخاء فضلا عن موقعها الجغرافى الممتاز .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٣

وعمل عبيد الله المهدى على القضاء على دولة الأغالبة التى كانت تعترض طريقه إلى وادى النيل . وتم له سنة ٢٩٦هـ (٩٠٦م) إيقاع الهزيمة بزيادة الله بن عبد الله ابن ابراهيم بن الأغلب أو زيادة الله الأصغر آخر أمراء تلك الدولة .

وفر زيادة الله إلى مصر ومعه جمع من أتباعه فنزل الجيزة فى شهر رمضان سنة ٢٩٦ هـ ، ولم يحسن النوشرى الظن به فكانت بينه وبين جند هذا الوالى مناوشة عند الجيزة قبل أن يسمح له بالعبور ليلا إلى الفسطاط[١] .

وحدث فى ولاية النوشرى على مصر أن توفى الخليفة المكتفى بالله فى ذى القعدة سنة٢٩٥هـ ، وبويع جعفر بن أحمد المعتضد ولقب المقتدر بالله فأقر النوشرى على ولايتها .

ثم توفى عيسى النوشرى فى نهاية شعبان سنة ٢٩٧ هـ (٩١٠م) وكانت ولايته على مصر زهاء خمس سنين وقام بالأمر من بعده ابنه أبو الفتح محمد بن عيسى النوشرى إلى أن قدم الوالى الجديد أبو منصور تكين بن عبد الله من قبل المقتدر . عين فى شوال ووصل إلى الفسطاط فى بداية ذى الحجة . ووجه عنايته منذ البداية إلى دفع خطر الفاطميين فى المغرب فجهز جيشا عقد قيادته لأبى النمر[٢] أحمد بن صالح بعد أن ولاه على برقة[٣] . وسار هذا القائد على رأس جيشه إلى مقر عمله الجديد واستتب له الأمر فيه وحسنت سيرته ولكن حباسة بن يوسف الكتامى كان يقف له بالمرصاد

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٦٧ والمقريزى : الخطط ج ١ ص٣٢٧ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٩١

(٢) هكذا سمى فى الكندى (الولاة والقضاة ص ٢٦٨) أما فى ابن سعيد (المغرب ص٨) والمقريزى (الخطط ج ١ ص ٣٢٧) فقد سمى أبا يمن بينما سمى فى أبى المحاسن (النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٧٢) أبا اليمن .

(٣) نص الكندى فى كتاب الولاة والقضاة ص ٢٦٨ على أن احمد بن صالح هذا كان من الأبناء ولسنا ندرى تماماً هل يقصد بذلك أنه كان من السلالة التى ولدت باليمن من الفرس المهاجرين اليها أو أنه كان من سلالة أوائل الداعين لنصرة الدولة العباسية أو انه كان من سلالة سعد بن زيد مناة مع استثناء ولديه كعب وعمرو وهى السلالة التى كان يطلق عليها اسم الأبناء وتسكن سهل الدهناء الرملى . أنظر مقال « الأبناء » فى دائرة المعارف الاسلامية .

على رأس جيش بعث به صاحب توزر [١] فى افريقية لحساب المهدى . ولم يفلح حباسة فى القضاء على سلطان أحمد بن صالح فلجأ إلى الخدعة ولاسيما حين علم أن تكينا والى مصر عزم على عزل هذا القائد من ولايته ببرقة وعلى أن يعقد عليها لقائد اسمه خير المنصورى . وهكذا كتب حباسة إلى ابن صالح يسأله عما يحمله على حربه وهو معزول وبعث إليه بكتاب ورد عليه من مصر بأنباء هذا العزل . وعاد ابن صالح إلى مصر ومد حباسة سلطانه على برقة . ثم خرج إليها خير المنصورى من مصر ومعه عبد العزيز بن كليب الجرشى، والظاهر أن تكينا والى مصر أشرك عبد العزيز هذا فى حكم برقة مع خير المنصورى . ومهما يكن من الأمر فقد وقع بينهما من الخلاف والمنافسة والجفاء ما مكن حباسة من هزيمتهما والظفر بحكم برقة .

ولم يستطع تكين أن يعيد سلطان مصر إلى هذا الاقليم فبعث إلى صاحب افريقية بكتاب على لسان أمير المؤمنين المقتدر يدعوه فيه إلى الطاعة والتمسك بها [٢] وكان ذلك فى سنة ٣٠٠ هـ (٩١٣ م) . ومما يستحق الذكر أنه جمع وجوه أهل مصر وقرأ عليهم هذا الكتاب قبل إرساله [٣] . ولعلنا نستطيع أن نستنبط من هذا أن مبدأ الشورى كان يتبع فى كثير من الأحيان، وأن الوالى كان يجمع وجوه القوم ليعرض عليهم بعض الشئون الرئيسية فى البلاد .

وكانت هزيمة المصريين فى برقة أكبر حافز للفاطميين على الهجوم على مصر نفسها فوجه إليها المهدى جيشا من افريقية بقيادة ابنه أبى القاسم سنة ٣٠١ هـ وقيل ان سبب تحرك هذا الجيش أن القاسم بن المهدى بعث إلى بغداد بقصيدة يفخر فيها بأسرته وبما فتح من البلاد فأجابه أبو بكر الصولى بقصيدة على وزنها ورويها ومنها :

فلو كانت الدنيا مثالا لطائر ... لكان لكم منها بما حزتم الذنب

---

(١) توزر بالفتح ثم السكون وفتح الزاى وراء مدينة ببلاد الجريد فى إمارة تونس الحالية أنظر : أبو عبيد البكرى : المغرب ص ٤٨ — ٧٤ والمراكشى : كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥٨ ، وياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٤٢٨ — ٤٢٩

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٦٨

(٣) المرجع نفسه ص ٢٦٨ — ٢٦٩

فحرك همته هذا البيت ، وقال : « والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر ورأسه — ان قدرت — وإلا أهلك دونه »[١] .

وسار أبو القاسم بجيشه من برقة الى الاسكندرية والفيوم ودان له جزء كبير من مصر فبعث اليه المقتدر بالله جيشا على رأسه مؤنس الخادم من اعلام القواد العباسيين وأفلح هذا الجيش فى صد الفاطميين وارغامهم على الجلاء عن مصر[٢] .

ولكن الفاطميين لم ييأسوا من فتح مصر نهائيا ، فلما كان العام التالى أى سنة ٣٠٢ هـ أرسل عبيد الله المهدى جيشا كبيرا بقيادة حباسة بلغ عدده فى رأى الكندى[٣] « مائة ألف أو زيادة عليها » وهو رقم مبالغ فيه . وإن دل هذا على شىء فانما يدل على أن عدد هذا الجيش زاد بكثير على الجيوش التى وجهها الفاطميون الى برقة ومصر قبل ذلك .

وعلى كل حال فالظاهر أن الفاطميين قدموا الى الاسكندرية هذه المرة بطريق البحر[٤] وسقط هذا الثغر فى يدهم دون كبير مقاومة[٥] ، ولكن قدمت الجيوش من المشرق مددا لتكين والتقت جيوشه بالفاطميين على مقربة من الجيزة وكان النصر حليف المصريين وفر حباسة بفلول جيشه الى المغرب فقتله المهدى .

ومما يستحق الذكر فى القتال الذى دار بين الجيشين أن أهل الفسطاط اشتركوا فيه مع الجيش اشتراكا ملحوظا وأبلوا فيه بلاء حسنا . وفى ذلك يقول الكندى[٦] : « وسار حباسة من الاسكندرية فعسكر بمشتول فنودى بالنفير فى الفسطاط يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الآخرة فلم يتخلف عن الخروج إلى الجيزة أحد من الخاصة والعامة ثم انصرفوا عشيا ولم يكن لقاء ، ثم نودى بالنفير من الغد يوم الأربعاء فخرج الناس أيضاً

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٩

(٢) ابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٨ ص ٣٠ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٨

(٣) الولاة والقضاة ص ٢٦٩

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٠٠

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٧ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٧٣

(٦) الولاة والقضاة ص ٢٧٠

ثم لم يكن لقاء ثم نودى يوم الخميس فخرج الناس خروجاً لم ير مثله قط فى الاجتماع والنشاط وحسن البصيرة وأتاهم حباسة فى جيشه يومئذ فيما بين الظهر والعصر فالتقوا وكثرت القتلى منهم وقتلت رجالة حباسة كلهم ثم من الله وله الحمد بهزيمتهم ومنح أهل مصر أكتافهم ومضوا على وجوههم هاربين ورأوا من اجتماع الناس ونصر الله ما لم يسمع بمثله » .

ونظم الشعراء المصريون القصائد فى وصف هذا القتال وفى رثاء من استشهدوا فيه من المصريين[1] . وتشير بعض الأبيات فى تلك القصائد إلى أن الفاطميين كان لهم دعاة وأعوان بين سكان مصر ، وأن هؤلاء الأعوان كانوا يكتبون إليهم ، ولعلهم كانوا ينقلون إليهم مواطن الضعف فى البلاد ويدعونهم إلى القدوم لفتحها ومن تلك الأبيات قول ابن مهران متحدثاً عن حباسة :

وأقبل جاهلا حتى تخطى وجاز بجهله حد التخطى
بكتب جماعة قد كاتبوه من اقباط بمصر وغير قبطى
وكل كاتبوه منافقونا وكل فى البلاد له موطى[2]

ولعل الإشارة إلى القبط فى هذه المناسبة تشهد بأن مصر كانت تمر حينئذ بفترة من فترات التعصب الدينى ، وبأن بعض القبط كانوا يعرفون عن الفاطميين من التسامح الدينى ما يبشر بتحسن أحوال أهل الذمة على يدهم .

ثم قدم إلى مصر القائد مؤنس الخادم على رأس جيش من العراق ، ولسنا نعرف تماما هل كان وصوله قبل هزيمة حباسة أو بعدها . فالكندى[3] ينص على أن مؤنسا الخادم أقبل من العراق فدخل مصر « يوم الإثنين للنصف من شهر رمضان ومعه جمع من الأمراء سار بهم ونزل الحمراء[4] ولقى الناس من جنده كل ما كرهوا » كما ينص

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٧٠ — ٢٧٣
(٢) المرجع نفسه ص ٢٧٢
(٣) الولاة والقضاة ص ٢٧٣
(٤) خطة من خطط الفسطاط : أنظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٤٥ وانظر خريطة خطط الفسطاط فى المرجع نفسه .

على أن معارك المصريين مع جيش حباسة كانت جمادى الآخرة[١] . أما ابن الأثير[٢] فيشير إلى أن الخليفة المقتدر « أرسل مؤنسا الخادم فى عسكر إلى مصر لمحاربة حباسة وأمده بالسلاح والمال فسار إليها فالتقى العسكران فى جمادى الأولى سنة ٣٠٢ فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل من الفريقين جمع كثير وجرح مثلهم ثم كان بينهم وقعة أخرى بنحوها ثم وقعة ثالثة ورابعة فانهزم فيها المغاربة أصحاب العلوى وقتلوا وأسروا فكان مبلغ القتلى سبعة آلاف مع الأسرى وهرب الباقون وكانت هذه الوقعه سلخ جمادى الآخرة وعادوا إلى المغرب فلما وصلوا إلى المغرب قتل المهدى حباسة » .

ونحا المقريزى[٣] نحو ابن الأثير فكتب أن مؤنسا الخادم التقى بحباسة فى جمادى الأولى (سنة ٣٠٢) وأن حباسة انهزم فى نهاية جمادى الآخرة . أما أبو المحاسن[٤] فيشير إلى أن مؤنسا الخادم وصل إلى مصر بعد أن انتهى تمكين من هزيمة حباسة . والملاحظ بوجه عام أن النصوص القديمة مضطربة فى هذا الصدد ، وحسبنا أن أبا المحاسن يذكر فى موضع أن جيش الفاطميين كان بقيادة حباسة[٥] ثم ينص فى موضع آخر[٦] على أن عبيد الله نفسه هو الذى قدم من المغرب إلى الإسكندرية ومعه حباسة « فجرت بينه وبين جيش الخليفة حروب قتل فيها حباسة وعاد مولاه عبيد الله إلى القيروان »[٧] .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٧٠

(٢) تاريخ الكامل ج ٨ ص ٣١

(٣) اتعاظ الحنفا ص ١٠٠

(٤) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٧٣

(٥) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٧٣

(٦) المرجع نفسه ج ٣ ص ١٨٤

(٧) وفضلا عن ذلك فان ابن عذارى (البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ ص ١٨٣) يروى أن القائم بن المهدى ولى على هذه الحملة عند وصولها إلى الفيوم قائدا جديداً هو ابن فريدون فغضب حباسة وهرب مع بعض خاصته ميمماً شطر المغرب وكتب القائم إلى أبيه المهدى بذلك ، واتجه حباسة إلى أخيه عروبة بن يوسف الكتامى وكان قد خرج على المهدى ونجح الأخير فى القبض على الأخوين وقتلهما ، راجع المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٠٠

Wustenfeld : Die Statthalter von Agypten zur Zeit der Chalifen IV pp. 12-13.

ومهما يكن من الأمر فإن مؤنسا الخادم قرر عزل تكين عن ولاية مصر وأمره بالرحيل عنها فخرج فى السابع من ذى الحجة سنة ٣٠٢ هـ وكتب مؤنس إلى الخليفة بذلك[١] . ولسنا ندرى هل كان مؤنس مفوضاً من قبل الخليفة بإحداث مثل هذا التغيير فى ولاية مصر ، كما أننا لانعرف سببه ، ولاسيما بعد انتصار تكين على جيش الفاطميين . ولكن الراجح عندنا أن كبار القواد كان لهم سلطان واسع وكان فى استطاعتهم عزل الولاة الذين يوفدون لنجدتهم . فضلا عن أن مؤنسا الخادم كان من أكبر قواد العباسيين ومن أخص المقربين إلى الخليفة المقتدر .

أقام مؤنس فى مصر يدبر أمورها إلى أن عين الخليفة المقتدر والياً جديداً يحل محل تكين . هو ذكا الأعور[٢] أو ذكا الرومى[٣] . ووصل هذا الوالى إلى مصر فى الثانى عشر من شهر صفر سنة ٣٠٢ هـ فخرج منها مؤنس الخادم بجميع جيشه فى الثامن من شهر ربيع الآخر .

وكان مؤنس الخادم أثناء إقامته فى مصر مطلق التصرف فى أمورها وكان يلقب بالأستاذ بل كان يدعى له على المنابر بعد الخليفة ، على نحو ما كان يحدث لبعض كبار الامراء الذين كانوا يقطعون مصر منذ بداية العصر العباسى الثانى[٤] .

ولما استقر الأمر لذكا الرومى عنى بالكشف عن عيون الفاطميين فى مصر ومن كانوا يكاتبونهم من سكانها فقبض على كثير منهم ، ومثل بآخرين بقطع أيديهم أو أرجلهم . وعنى كذلك بمدينة الاسكندرية فخرج إليها ونظر فى أمر تحصينها والدفاع عنها وولى عليها ابنه مظفر بن ذكا وبعث إليها بجمع من القواد مرة بعد أخرى . ولا عجب فقد دلت التجارب على سهولة غزوها وعلى نجاح الفاطميين فى الاستيلاء عليها . وكان ذكا يخشى أن يتجدد الغزو الفاطمى .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٧٣

(٢) المرجع نفسه ج ٣ ص ١٧٤

(٣) يسميه اينپول باسمه اليونانى Ducas انظر Lane — Poole : A History of Egypt in the Middle Ages p. 80 .

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٤ ، وجرومان : المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية ص ١٢ ، وسيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٣٥

وقد وقع ما كان يخشاه المصريون ، إذ جهز المهدى جيشا كثيفا عقد لواءه لابنه أبى القاسم سنة ٣٠٧ هـ ، ووصلت مقدمة هذا الجيش إلى الاسكندرية فى شهر صفر ، ثم وصل أبو القاسم بسائر الجيش وسقطت المدينة ونهبها الغزاة وحل الذعر بسكانها وانتشر خبر الغزو الفاطمى فى مصر فهرب كثير من أهلها إلى الشام فى البر والبحر ومات بعضهم فى الطريق .

أما الجيش الفاطمى فقد تقدم عدد كبير منه فاحتل الفيوم والاشمونين وجزءا كبيرا من الصعيد ، والظاهر أن قائده أبا القاسم كتب إلى أهل مكة يدعوهم إلى الدخول فى طاعته فلم يلبوا دعوته [١] . ويبدو أن الذى أخر الفاطميين عن دخول الفسطاط وباء انتشر بين جنودهم فى مصر الوسطى [٢] .

أما ذكا الرومى والى مصر فكان مقيما فى الفسطاط يعمل على الاستعداد لقتال الجيش الفاطمى ويسعى فى حشد جنده ولكن عددا كبيرا منهم كان يأبى الخروج للقتال ، واستطاع ذكا أن يخرج بجيشه الى الجيزة بعد جهد وكان صاحب الخراج حينئذ الحسن ابن أحمد الماذرائى وقد قام بتوزيع العطاء على الجند فأرضاهم .

وجد ذكا فى التأهب للحرب وأمر ببناء حصن على الجسر الغربى بالجيزة وحفر خندقا يحيط بعسكره حتى لا يفجأه العدو . وما زال ذكا جادا فى أمر هذه الحرب حتى مرض وتوفى فى الجيزة فى ربيع الآخر سنة ٣٠٧ هـ (٩١٩ م) [٣] .

وبعد وفاة ذكا عهد الخليفة المقتدر بولاية مصر الى تكين المرة الثانية فقدم اليها فى شعبان سنة ٣٠٧ هـ . والراجح أن الخليفة اختاره لسابق خبرته بمحاربة الفاطميين وصدهم عن مصر . وكان المقتدر قد جهز جيشا لنجدة ذكا ووصل هذا الجيش الى الفسطاط قبل وصول تكين .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٧٥ ، المقريزى : اتعاظ الحفا ص ١٠٣ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٨٧

(٢) Wustenfeld : op. cit. IV. pp. 14-15.

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٧٥ — ٢٧٦

ولما قدم تكين خرج بجيوشه المصرية والعراقية إلى الجيزة وعسكر بها ثم حفر خندقا حول جنده غير الخندق الذى كان قد حفره ذكا الأعور قبل وفاته ، والظاهر أن عودة تكين إلى مصر وثقة أهلها بقدرته على صد الجيش الفاطمى فضلا عن وصول المدد من العراق ، كل ذلك أعاد الهدوء إلى قلوب المصريين فرجع كثير ممن كانوا قد فروا إلى الشام والحجاز .

وأرسل المهدى إلى الاسكندرية نجدة لابنه القائم أسطولا قوامه ثمانون سفينة وعلى رأسه سليمان الخادم ويعقوب الكتامى ، وعلم الخليفة المقتدر بذلك فبعث إلى مصر بخمس وعشرين سفينة من طرسوس تحت إمرة ثمل الخادم [1] . والتقى الأسطولان عند رشيد فى شوال سنة ٣٠٧ هـ ، وكانت مراكب العباسيين غنية بالنفط وعدد القتال فكان النصر حليفهم فى هذه الموقعة ، وأحرقت معظم المراكب الفاطمية وقتل رجالها أو أسروا ودخل بعدها ثمل الخادم مدينة الفسطاط ومعه جمع كبير من الأسرى معظمهم من قبيلة كتامة . ثم أمر باطلاق الأسرى من أهل القيروان وطرابلس وبرقة وصقلية ، أما أهل كتامة وزويلة فقد أذن للجند والرعية فى قتلهم بوصفهم أخطر العناصر فى جند الفاطميين . وقيل إن عدد القتلى بلغ سبعمائة قتيل . وطيف بسليمان ويعقوب قائدى الأسطول الفاطمى مقيدين ومعهم رؤساء المراكب ومات سليمان فى السجن ونقل يعقوب إلى بغداد ولكنه هرب منها وعاد إلى المغرب [2] .

ولكن هزيمة الأسطول الفاطمى لم تقض على الحملة الفاطمية قضاء مبرما ، فقد كانت جيوش الفاطميين لاتزال تحتل الفيوم وجزءا من مصر الوسطى ، ومع ذلك فان الأوبئة ووفاة كثير من القواد وصعوبة التقدم ، كل ذلك عطلها عن العمل . وعندما تحركت لقتال تكين فى عسكره بالجيزة كان النصر حليف هذا الوالى العباسى ، ولكنه لم يكن نصراً حاسما . وعاد المغاربة إلى مصر الوسطى ورجع تكين بجيوشه إلى الفسطاط .

---

(١) الكندى : المرجع نفسه ص ٢٧٦ ، وسعيد بن البطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٨٠ ، وابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٨ ص ٣٩ ، وابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣١٢ ، والمقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٠٤

(٢) المقريزى : المرجع نفسه ص ١٠٤ و Wustenfeld : Die Stattalter IV. pp. 15-16.

وطبيعى أن الخليفة لم يرض عن فترة الركود بين الجيشين وعن عجز المصريين وإخفاقهم فى طرد الفاطميين فرأى أن يقوم بعمل حاسم فى هذا السبيل وبعث إلى مصر بمدد قوامه ثلاثة آلاف جندى على رأسهم مؤنس الخادم . ووصل هذا المدد إلى مصر فى شهر المحرم سنة ٣٠٨ هـ ولكن جهوده ذهبت سدى ، إذ أن مؤنسا الخادم اكتفى بارسال فريق من الجيش إلى الأشمونين . وكان على رأس هذا الفريق القائد ابراهيم بن كيغلغ ومات هذا القائد بالبهنسا وهزم المغاربة جنده وعاد الركود بين الجيشين ، إلى أن وصلت إلى مصر نجدة ثانية من العراق بقيادة جنى الخادم المعروف بالصفوانى . وسارت الجيوش العباسية كلها إلى الفيوم بقيادة مؤنس وتكين وجنى الخادم وأوقعت بالفاطميين عدة هزائم وفر القائم ابن المهدى بفلول جيشه إلى برقة .

ومما يشهد باضطراب الأحوال الداخلية بمصر فى تلك الفترة من تاريخها أن بعض وجوه القوم فى الفسطاط كانوا لا يزالون يكاتبون الفاطميين فى المغرب وأن تكين علم أثناء استعداده لقتال المغاربة أن ابن المدينى القاص وجماعة بمصر يدعون للمهدى ويتصلون به فقبض عليهم وقتلهم وسجن أتباعهم [١] . بل يظن أيضا أن صاحب الخراج فى مصر حينئذ وهو أبو زنبور الحسين بن أحمد الماذرائى وابن أخيه محمد بن على بن أحمد الماذرائى كاتبا المهدى ونقلا إليه أن مصر لم يكن فيها جنود يستطيعون الدفاع عنها ، وأن سقوطها فى يد الفاتحين أمر ميسور ، ووعداه أن يقدما له كل عون فى إخضاع سكانها إذا قدم بنفسه لفتحها [٢] . ولكننا لا نميل إلى تأييد هذا الظن لأن الماذرائيين كانت لهم مكانة مرموقة فى الادارة ولم يكن لهم نفع فى تغيير الحكم فى البلاد . اللهم إلا إذا ذهبنا إلى أن أبا زنبور الماذرائى وقريبه كانا يظنان أن مصر توشك أن تقع فى يد الفاطميين وأنهما أرادا أن يكون لهما من الأمر شىء تحت الحكم الفاطمى .

وقد كان لانتصار مؤنس الخادم وقع عظيم فى بغداد فخلع عليه الخليفة ولقبه بالمظفر [٣] .

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٧٧ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٩٦

(٢) Wüstenfeld : Die Statthalter IV. pp. 16-17

(٣) مما يستحق الذكر أن أبا المحاسن (النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٠٣) لاحظ الشبه بين هذا اللقب والألقاب التى انتشرت فى عصر المماليك فكتب : « وهذا أول لقب سمعناه من ألقاب ملوك زماننا » .

ومهما يكن من الأمر فقد أصبحت مصر مرتعا للجيوش العديدة التى وفدت إليها من بغداد لقتال الفاطميين والدفاع عن مصر . وطبيعى أن أهل مصر كانوا يقاسون الأمرين من عسف الجند وما يقومون به من السلب والنهب . وقد أدى ذلك كله إلى اضطراب الأحوال المالية فى البلاد ، فلا عجب إذا كتب محمد بن على الماذرائى العامل على الخراج ينبه الحكومة المركزية فى بغداد إلى كثرة الجيوش فى مصر وما تحتاج إليه من نفقات طائلة[١] .

وظل تكين فى ولايته الثانية على مصر إلى أن عزله مؤنس الخادم فى ربيع الأول سنة ٣٠٩ هـ وولى عليها أبا قابوس محمد بن حمك[٢] . وسبب العزل غير واضح فى المراجع التاريخية ، ولكننا نرجح أن مؤنسا كان يحقد على تكين لأن الأخير كان محبوبا من أهل مصر ، كما يشهد بذلك استنكارهم لعزله واستهانتهم بالوالى الجديد ، إلى حدٍ خشى معه مؤنس قيام فتنة فى البلاد ، ولا سيما حين ألح عليه وجوه القوم فى عودة تكين ونبهوه إلى عاقبة عزله . وكان القائد العباسى حكيما بعيد النظر فأعاد الوالى المعزول بعد ثلاثة أيام من عزله ولكنه فعل ذلك إلى أن يستعد لإخماد أى حركة قد يقوم بها أهل مصر أو جند تكين . فلما تم له ما أراد واتخذ للأمر عدته قرر مع مساعديه من القواد عزل تكين وإبعاده عن مصر . وهكذا عزل هذا الوالى للمرة الثالثة وخرج إلى الشام على رأس أربعة آلاف من الجند ، ولم تزد ولايته الأخيرة على أربعة أيام[٣] .

وأقر الخليفة كبير قواده فى عزل تكين وبعث إلى مصر بوالٍ جديد هو هلال ابن بدر كما استدعى مؤنساً إلى بغداد ، فخرج هذا القائد من مصر ومعه الجيوش العراقية التى وفدت اليها لصد الفاطميين .

ولم يكن هلال بن بدر موفقا فى ولايته فزاد الاضطراب على يده وثار عليه فريق كبير من الجند وقامت بينه وبين أولئك الثوار حروب طويلة وعم الفساد فى البلاد

---

(١) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٢٨

(٢) هو محمود بن حمل فى خطط المقريزى ، ج ١ ص ٣٢٨ ومحمود بن جمل فى النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج ٣ ص ١٩٩

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٠٠

وكثر القتل والنهب وقطع الطريق ، فلم ير الخليفة المقتدر بدا من عزل هذا الوالى . وأرسل إلى مصر والياً جديداً ، هو أحمد بن كيغلغ [١] .

ولم يكن هذا الوالى غريبا عن مصر ، فقد سبق أن اشترك مع جند العراق فى صد الفاطميين عنها سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥م) . وقدم معه محمد بن الحسين الماذرائى عاملا على الخراج وكان أول ما عنيا بتنظيمه عطاء الجند . والظاهر أنهما لاحظا أن هذا العطاء أصبح ثقيلا على الميزانية فأسقطاه عن كثير من الجند المشاة السابقين وثار هؤلاء الجند ولم يستطع الوالى إخماد ثورتهم ففر إلى مدينة فاقوس وأراد محمد بن الحسين الماذرائى الخروج إلى بلاد الشام ولكن منعه الجند واضطروه إلى البقاء فى الفسطاط .

وظل ابن كيغلغ مختبئاً فى فاقوس وطغى الجند وزاد نفوذهم واضطرب حبل الأمن فى البلاد ولم تستطع الحكومة المركزية فى بغداد أن تقوم بعمل حاسم لتأديب الثوار بسبب ضعفها وحاجتها إلى جميع الجند للدفاع عن مصر فاكتفى الخليفة المقتدر بعزل ابن كيغلغ وأعاد إلى ولاية مصر عاملا خبيراً بشئونها محبوبا عند أهلها وجندها ، هو تكين الذى وليها ثلاث مرات قبل ذلك [٢] .

ولم تكن مهمته هذه المرة سهلة ، لأن استبداد الجند بلغ حدا لم يمكن السكوت عليه إذ كان يهدد البلاد بأوخم العواقب فعمل تكين منذ ولايته سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤م) على كبح جماح أولئك الجند ، واضطر إلى تغيير كثير من معاونيه وإلى ترتيب الخطط المحكمة لكسر شوكة المشاغبين من رجال الجيش والادارة . ولما نجح فى ذلك كله أقدم على إسقاط العطاء عن هؤلاء المشاغبين وأمر بخروجهم من مصر ، وتم له ما أراد فحسنت حال البلاد .

ولما قتل الخليفة المقتدر فى شوال سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢م) وبويع بالخلافة أخوه القاهر أقر تكين على ولاية مصر وبعث إليه بالخلع علامة على رضائه

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٧٩

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٠٦ — ٢٠٧

عن إدارتها . ولكن تكين لم تطل ولايته بعد ذلك إذ مرض ووافته المنية فى ربيع الأول سنة ٣٢١هـ (٩٣٣م) .

ولا ريب فى أن ولاية تكين الأخيرة على مصر كانت شوطاً بعيداً فى عودة الاستقرار إلى مصر ، فقد كان على حد قول أبى المحاسن[1] « أميراً عاقلا شجاعا عارفا مدبراً ، ولى الأعمال الجليلة ، وطالت أيامه فى السعادة وكان عنده سياسة ودربة بالأمور ومعرفة بالحروب » .

وكادت وفاة تكين تقضى على الاستقرار الذى بلغته مصر فى ولايته الأخيرة ، وذلك بسبب النزاع فى حكم البلاد بعد وفاته . وبيان ذلك أن ابنه محمد بن تكين تسلم مقاليد الحكم من غير ولاية الخليفة بل باستخلاف أبيه . ولكن أبا بكر محمد ابن على الماذرائى لم يرض عن ذلك . وحدث أن ثار الجند بسبب تأخر عطائهم واستطاع الماذرائى أن يرغم محمد بن تكين على مغادرة البلاد والخروج إلى الشام . وكتب ابن تكين إلى الخليفة فى بغداد يطلب أن يولى على مصر وجاء جواب الخليفة القاهر بأن يكون الوالى محمد بن تكين وأن يقوم الماذرائى بتدبير أمر البلاد ، ولعل المقصود بذلك تدبير الشئون المالية ، ولكننا سوف نرى أن الماذرائيين كانوا ينفذون من تدبير الشئون المالية إلى السيطرة على معظم مرافق الادارة فى مصر . ومهما يكن من الأمر فان محمد بن على الماذرائى استطاع أن يمنع ابن تكين من العودة إلى مصر[2] . وهنا ظهر محمد بن طغج على مسرح السياسة المصرية لأول مرة فقد أفلح فى تحقيق حلم قديم له وحصل من الخليفة على تقليد بولاية مصر . وسوف نعود إلى تفصيل الكلام على ذلك فى الصفحات التالية .

---

(١) المرجع نفسه ج ٣ ص ٢١١

(٢) راجع الروايات المختلفة فى الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨١ وابن سعيد : المغرب ص ١٠ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٥٦ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ و Wüstenfeld : Die Statthalter IV. pp. 20-21

(٤)

المـاذرائيون

كانت مقاليد الأمور بمصر فى الفترة الواقعة بين الدولتين الطولونية والاخشيدية فى أيدى ثلاث قوات : الولاة وقواد الجيش العراقى فى مصر والمـاذرائيين . وقد مر بنا الكلام على الولاة وعرفنا أن أعظمهم مكانة وأكثرهم توفيقاً هو تكين ، كما عرفنا ما كان للقواد العباسيين فى مصر من نفوذ وسلطان حتى استطاعوا عزل الولاة قبل الرجوع إلى الخليفة . وكان أظهر أولئك القواد مؤنسا الخادم المظفر .

أما المـاذرائيون فأسرة فارسية الأصل[١] تنسب إلى ماذرايا أو مادرايا وهى قرية من أعمال البصرة وقيل من أعمال واسط[٢] . ولـكن هذه الأسرة لم تصل إلى الثروة والسلطان إلا بسبب نزوح كثير من أفرادها إلى مصر ، ولسنا نعرف تمـاماً متى كان خروج أول عضو منهـا إلى هذه البلاد ، والراجح أنه وفد إلى مصر فى حاشية والٍ من ولاتها لعله أحمد بن طولون . ولمـا لقى فيها الرخاء والنجاح استدعى إليه من العراق نفراً من أفراد أسرته ، وتبعهم آخرون وأتيح لبعض أعضاء هذه الأسرة ولاية طائفة من الوظائف الرئيسية فى مصر ، ولـكنهم لم يقطعوا أسباب الصلة بمسقط رأسهم فى العراق .

---

(١) أنظر مقال الأستاذ جست فى A Volume of Oriental Studies Presented to Professor Browne pp. 171-172.

(٢) جاء اسمهم بالذال المعجمة فى بعض المراجع مثل الـكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤٤ وياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ٣٥٣ ، مادة ماذرايا ؛ وسمام المقريزى المـاردانيين (الخطط ج ١ ص ٣٣٢ و ج ٢ ص ١٥٥ ؛ وسمام السمعانى المـادرانيين (كتاب الأنساب ورقة ٤٩٩ ولعل النون تصحيف فى المخطوط) . راجع :

Becker : Beiträge p. 171 ; H. Gottschalk : Die Madaraijjun p. 20-22, Zaky M. Hassan : Les Tulunides : 284 ; Wüstenfeld : Statthalter IV, 2.

وأول من نقرأ عنه من الماذرائيين فى إدارة مصر هو أحمد بن ابراهيم أو محمد بن احمد بن ابراهيم الماذرائى الأطروش[١] الذى ولى خراج مصر سنة ٢٦٦هـ شركة مع على بن الحسين (أو الحسن أو أبو الحسن) بن شعيب المدايني . وقد ذكر المقريزى أن الذى ولاه هو الخليفة المعتمد[٢] . وذكر البلوى[٣] وابن سعيد[٤] (عن ابن الداية) أن الذى ولاه هو احمد بن طولون نفسه . والراجح عندنا ما ذكره البلوى وابن سعيد لأن ابن طولون أشرف على مالية البلاد بعد تخلصه من ابن المدبر وأصبح منذ سنة ٢٦٤ هـ فى عداء ظاهر مع الحكومة المركزية فى بغداد واستقل عنها بإدارة مصر[٥] . ومهما يكن من الأمر فإن شركة الماذرائى مع على بن الحسين فى خراج مصر لم تدم طويلا لأن ابن طولون أمر بسجن على بن الحسين حتى مات ، وذلك بسبب كتاب وجهه إلى ابن المدبر — عدو ابن طولون — يشكو فيه من أعمال وظيفته[٦] . وهكذا أصبح الماذرائى وحده عاملا على خراج مصر .

وبدأ عميد الماذرائيين فى مصر سياسة محكمة فى جذب أفراد أسرته ورفع شأنهم فى مناصب الدولة فكان ينيب عنه أحياناً أخاه أو ابنه على بن أحمد الماذرائى واتخذه كاتباً له . وقد روت بعض المراجع قصة تبين كيف استطاع على هذا أن يثبت براءة عميد الأسرة من تهمة اختلاس مبلغ كبير من أموال الخراج فتنبه ابن طولون إلى حضور ذهنه وكفايته وذكائه ورفع مكانته فى إدارة مصر[٧] . وفضلا عن ذلك فقد استطاع

---

(١) اختلفت المراجع العربية فى تسمية رأس هذه الأسرة فى مصر وقد ناقش المستشرق جوتشلك الروايات المختلفة فى رسالته عن الماذرائيين ص ٣٠ — ٣٣ ولم ينته إلى نتيجة يمكن الاطمئنان اليها .

(٢) راجع النص العربى المنقول عن كتاب المقفى للمقريزى ، فى رسالة جوتشلك عن الماذرائيين ص ١١٩

(٣) سيرة أحمد بن طولون ص ١٦١ وص ١٧٨

(٤) Ibn Said, Vollers p. 67.

(٥) Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 63, 247.

(٦) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ١٨٧

(٧) البلوى : المرجع نفسه ص ١٦١ — ١٦٤ وانظر النص العربى المنقول عن المقفى للمقريزى فى رسالة جوتشلك عن الماذرائيين ص ١١٩ — ١٢٠

عميد الماذرائيين أن يحمل ابن طولون على تعيين ماذرائى آخر — هو الحسين بن أحمد المعروف بأبى زنبور — فى عمل رئيسى بالشام[١] .

وأصبحت زعامة الماذرائيين منذ ولاية خمارويه لعلى بن أحمد الماذرائى ، فقد اختاره خمارويه وزيراً له[٢] أو كاتبا . وأغرى على الماذرائى خمارويه بالحسن بن المهاجر الذى كان عاملا على البريد ومستشارا لابن طولون ونقل اليه أن ابن المهاجر يعرف وحده مخبأ أموال كثيرة خلفها ابن طولون فلم يزل خمارويه بابن المهاجر حتى وصل إلى تلك الأموال . وقد كتب المقريزى[٣] أنها بلغت ألف دينار وأن خمارويه سلمها لعلى بن أحمد الماذرائى لينفق منها فى الصلات والنفقات التى كان يأمر بها ، ولكن الماذرائى كان ينفق على ذلك كله من فائض أموال الضياع والمرافق ، فظل المال الذى كشفه ابن المهاجر محفوظا عند على بن أحمد الماذرائى حتى أفاد منه ابنه أبو بكر محمد بن على لما صودرت أملاكه فى عصر الاخشيد . وعلى الرغم مما فى هذه القصة من المبالغة فإنها تشهد بأن على بن أحمد الماذرائى كان يشرف على ضياع الأمير وأمواله الخاصة وأنه كان موضع ثقته ، فعظم سلطانه فى إدارة البلاد حتى كتب عنه المقريزى أنه « كان يملك النظر فى جميع أمور مصر خلافة لأبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ووزارة »[٤] .

وفى سنة ٢٧٢ هـ استقدم على بن أحمد الماذرائى إلى مصر ولديه أبا بكر محمد ابن على وأبا الطيب أحمد بن على ، وأصبحت مصر منذ تلك السنة وطن الماذرائيين[٥] . واستخلف على بن أحمد الماذرائى ابنه أبا بكر محمد ، على الخراج ، ثم استخلفه على ديوان الرسائل[٦] .

---

(١) المقريزى : المقفى (فى المرجع السابق ص ١١٩) .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٨ ص ٦٥

(٣) الخطط ج ١ ص ٣٣٠ — ٣٣١

(٤) أنظر النص العربى المنقول عن المقفى فى رسالة جوتشلك عن الماذرائيين ص ١٢٠

(٥) المرجع نفسه ص ١٢٠

(٦) المرجع نفسه ص ١٢٠ وابن سعيد : المغرب ص ١٦٣

وكان على بن أحمد الماذرائى فى دمشق مع خمارويه عند ما توفى هذا الأمير وعاد بعد ذلك إلى مصر وأصبح صاحب الأمر والنهى فيها طوال الفترة القصيرة التى حكم فيها أبو العساكر جيش بن خمارويه ، ولما ثار الجند على هذا الأمير عمل على الماذرائى على تهدئة الحال ولكنه أخفق وانتهى الأمر بقتله وقتل جيش بن خمارويه [١] .

وكان على بن أحمد الماذرائى قد أودع عند القاضى محمد بن عبده وعند ابراهيم بن هروان العباسى مالا كثيرا تسلمه بعد وفاته ابنه أبو بكر محمد بن على [٢] .

ومهما يكن من الأمر فان إخفاق على بن أحمد الماذرائى لم يؤثر فى مركز أسرته وسلطانه إذ خلفه ابنه أبو بكر محمد بن على فى زعامة الأسرة واستوزره الأمير هارون ابن خمارويه وظل يدبر أمور الحكومة فى مصر إلى أن قدمت الحملة العراقية للقضاء على دولة بنى طولون فغادر مصر مع من غادرها من عمال الطولونيين فى صحبة محمد بن سليمان إلى بغداد . وأقام بعد ذلك فى العراق من سنة ٢٩٢ إلى سنة ٣٠١ هـ . فلما سار مؤنس الخادم من العراق بجنده لقتال الجيش الفاطمى بمصر سبقه اليها فوصل فى ربيع الأول سنة ٣٠٢ هـ . وكان الخراج حينئذ فى يد أخيه أبى الطيب أحمد ابن على . وتوفى أبو الطيب سنة ٣٠٣ هـ فخلفه أخوه محمد على الخراج وبقى فى هذه الوظيفة إلى آخر سنة ٣٠٤ هـ . وقد كتب المقريزى عن سلطان محمد الماذرائى وثروته الواسعة وأطنب فى الكلام على الأموال التى كان يحملها إلى الحجاز كلما توجه لأداء فريضة الحج [٣] وذكر أن تمكين أمير مصر حينئذ كان يشيعه إذا خرج للحج ويتلقاه حين يرجع [٤] ، والواقع أن أبا بكر محمد بن على الماذرائى منح سلطانا واسعا فى مصر

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١١ ص ٢٨٣ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٩٣

(٢) ابن حجر فى ملحق أخبار القضاة بكتاب الولاة والقضاة للكندى ص ٥١٨

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٥٥ — ١٥٦

(٤) روى ابن سعيد (فى المغرب ص ٣٠) حادثاً وقع فى الحج بين محمد بن طغج وأبى بكر محمد الماذرائى كان سبباً فى الجفاء والوحشة بينهما منذ البداية . وخلاصته أن تمكين عهد إلى محمد بن طغج وهو فى دمشق بقيادة قافلة الحج وكان فيها أحد خواص الخليفة ، هو أبو صالح مفلح المقتدرى . وأراد ابن طغج أن يكرم أبا صالح ، فلما كان الركب فى عرفات ورأى أن قبة محمد بن على الماذرائى أعلى قبة تقدم هو وغلمانه وضربوا وجه ناقة الماذرائى وقدموا قبة مفلح فكبر ذلك على الماذرائى وظل يحقد على ابن طغج .

منذ قدومه سنة ٣٠١ هـ . فقد ذكر عريب بن سعد فى صلة تاريخ الطبرى عند كلامه على سنة ٣٠١ هـ أن أبا بكر محمد الماذرائى قلد فى هذه السنة أعمال مصر والإشراف على أعمال الشام وتدبير الجيوش [١] . كما ذكر الكندى أن أبا بكر محمد بن على بن أحمد الماذرائى وأبا على الحسين بن أحمد الماذرائى [٢] قدما إلى مصر سنة ٣٠٢ هـ على تدبيرها [٣] . وأقر أبو بكر الماذرائى أخاه أبا الطيب على الخراج وكان أبو بكر على حد قول ابن زولاق ، « أمير البلد فى الحقيقة » [٤] . ولكن الظاهر أن سلطان مؤنس الخادم [٥] كان يحد من سلطانه فاضطر بعد وفاة أخيه إلى الاحتفاظ بالنظر فى الخراج سنة ٣٠٣ هـ ، ثم تركه عند نهاية سنة ٣٠٤ هـ كما مر بنا وظل يقيم فى مصر ولكنه استدعى إلى دار الخلافة عدة مرات مع عمه أبى زنبور الماذرائى وطولبا بأداء أموال كثيرة وصودر جزء كبير من أملاكهما كما صودرت أملاك بعض أقاربهما [٦] .

وبعد أن ظل أبو بكر الماذرائى بعيدا عن الوظائف أربعة عشر عاما عين عاملا على خراج مصر فى جمادى الأولى سنة ٣١٨ هـ [٧] ولكن حدث فى السنة التالية أن استطاع محمد بن جعفر القرطى أن يحصل فى بغداد على تلك الوظيفة . ولعل الحكومة المركزية

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١٢ ص ٢٣

(٢) أشرنا اليه من قبل وسوف يأتى الكلام عليه .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٦٩

(٤) ملحق أخبار القضاة فى الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٢٧

(٥) مما يستحق الذكر أن ابن سعيد (المغرب ص ١٦٣) والمقريزى (المقفى فى رسالة جوتشلك عن الماذرائيين ص ١٢١) يذكران أن أبا بكر الماذرائى قدم مع مؤنس الخادم من العراق ولكن الحقيقة أنه سبقه فوصلها فى ربيع الأول سنة ٣٠٢ هـ كما تذكر هذه المراجع وغيرها ، بينما وصل مؤنس فى منتصف رمضان من السنة نفسها . ولعل المقصود أن الماذرائى قدم إلى مصر فى المناسبة التى قدم فيها مؤنس وهى صد الفاطميين ، وكان المقريزى أدق فى كتابه الخطط (ج ٢ ص ١٥٥) فكتب أن الماذرائى قدم إلى مصر « صحبة العساكر لقتال حباسة » ولم يحدد أن قدومه كان مع مؤنس الخادم .

(٦) عريب بن سعيد : صلة تاريخ الطبرى (فى تاريخ الأمم والملوك ج ١٢ ص ٣٤ — ٣٥)

(٧) المرجع نفسه ج ١٢ ص ٧٧

كانت غير مطمئنة إلى الماذرائى حتى إنها كتبت إلى تكين فى مصر تطلب إليه أن يبقى الماذرائى إلى أن يصل القرطى وأرسلت قائدا للقبض عليه وأراد الماذرائى الخروج من مصر فلم يأذن له تكين إلا بعد أن أهدى إليه وإلى زوجته جواهر قيمتها عشرون ألف دينار (نحو عشرة آلاف جنيه مصرى) ، وتوفى القرطى فى الطريق ورجع الماذرائى إلى مصر « أعز ما كان » [١] .

ولما توفى تكين فى السادس عشر من ربيع الأول سنة ٣٢١ هـ أصبح الأمر كله فى مصر بيد أبى بكر محمد بن على الماذرائى [٢] ، ولكنه لم يرض عن استخلاف تكين ابنه محمد بن تكين . وكانت الحالة فى مصر مضطربة إلى حد كبير كما تشهد بذلك قصة خلاصتها أن الماذرائى خاف أن يحضر جنازة تكين (ولعله كان يخشى أن يعتدى عليه فيها أو لعله كان ذا صلة بموت تكين) ولكن صديقا له أقنعه بالحضور ولما كانت الصلاة على الميت حدث أن قرأ الإمام (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) [٣] فقطع أبو بكر الماذرائى الصلاة وبادر بالانصراف [٤] .

وثار الجند فى مصر على أبى بكر الماذرائى مطالبين بعطائهم وأحرقوا دوره ودور أهله ودور كثير من أتباعه وقبضوا على بعض الموظفين من قبله فلم يرد أحداً من الاختفاء وخرج محمد بن تكين إلى الشام ومعه تابوت أبيه ، وكتب من الشام إلى بغداد يطلب أن تقره الحكومة المركزية فى ولاية مصر ، وكتب الماذرائى إلى بغداد أيضا ولكنه كتب « يلتمس أميرا » [٥] ولم يطلب الامارة لنفسه . والظاهر أنه كان يكره تولية محمد بن تكين ولكنه وسائر أفراد أسرته كانوا يؤثرون أن يحكموا مصر فعلا لا اسما

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٩

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨١ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٨ و : Wüstenfeld Statthalter IV. p. 21.

(٣) قرآن كريم : سورة القصص ، آية ٢٠

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ١٦٣ — ١٦٤ والنص العربى المنقول عن كتاب المقفى للمقريزى فى رسالة جوتشلك عن الماذرائيين ص ١٢٢

(٥) النص العربى المنقول عن المقفى فى المرجع السابق ص ١٢٢

وأن يكونوا مع الولاة بمثابة « أمير الأمراء » مع الخليفة فى بغداد . ومهما يكن من الأمر فقد تسلم ابن تكين ردا من بغداد بتوليته على مصر كما تسلم الماذرائى فى الوقت نفسه ردا « بتفويض أمر مصر ورد تدبيرها إليه وأن يولى من يختاره » وقد حمل إليه هذا الرد أحمد بن كيغلغ ، ويخيل إلينا من هذين الردين ومن سلطان الماذرائيين بوجه عام أن الحكومة المركزية كانت تحرص على أن تتعدد السلطات فى مصر وعلى ألا تتركز فى يد الوالى حتى تأمن بذلك أى نزعة استقلالية تكرر ما حدث فى العصر الطولونى .

وخرج الماذرائى من محبسه واستعاد مركزه فى ادارة مصر وأراد محمد بن تكين أن يدخل مصر مزودا بالتقليد الذى جاءه بولاية مصر ولكن الماذرائى لم يعترف به وجمع جيشا من الجنود المغاربة ونجح فى منعه من دخول البلاد وبقيت مصر بغير والٍ فيها الى أن ورد من بغداد أمر بتولية محمد بن طغج وكان فى دمشق حينئذ . وظل اسمه يذكر على المنابر فى مصر بعد اسم الخليفة نحو اثنين وثلاثين يوما أى من ٧ من رمضان الى ٩ من شوال سنة ٣٢١ هـ [1] .

ثم جاء كتاب من بغداد بتولية أحمد بن كيغلغ ، ولسنا ندرى سبب هذا التغيير السريع ولكنه يشهد على كل حال بعدم استقرار الأمور فى مصر وفى الحكومة المركزية ببغداد .

وثار الجند مرة ثانية على أبى بكر الماذرائى يطلبون رواتبهم وأحرقوا دوره ودور أهله وقامت فتن ومعارك بين طوائف الجند ولا سيما بين المغاربة والمصريين ، وما كاد السلام يعود بين تلك الطوائف المختلفة حتى ظهر محمد بن تكين قادما من فلسطين فى الثالث عشر من ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ وأعلن أنه ولى على مصر من قبل الخليفة . ولكن أبا بكر الماذرائى لم يعترف بولايته بينما تعصب له جماعة من المصريين

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨١ — ٢٨٢ وابن سعيد : المغرب ص ١٦٢ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٨ والمقريزى : المقفى (فى رسالة جوتشلك) ص ١٢٢ و : Wüstenfeld Statthalter IV p. 57.

ودعى له بالامارة على المنابر وقام القتال بين أنصار ابن كيغلغ وأنصار ابن تكين وانتهى الأمر بهزيمة ابن تكين وفراره من الفسطاط بعد أن دام حكمه فيها مائة واثنى عشر يوما . وانصرف ابن كيغلغ الى اصلاح أمور البلاد ولكن جاءه الخبر بخلع الخليفة القاهر بالله وتولية الراضى بالله وعاد محمد بن تكين الى مصر مظهرا أن الخليفة الجديد ولاه إياها . وقامت الحروب ثانية بينه وبين ابن كيغلغ وكان النصر للأخير ووقع ابن تكين فى الأسر ونفى الى الصعيد . واستقر الحكم لابن كيغلغ ولكن تدبير الأمور ظل بيد الماذرائى وأولاده ولم يكن لابن كيغلغ معهم أمر ولا نهى [1] .

ولا عجب فقد سار الخليفة الجديد على سنة خلفه فى التفريق بين السلطات الحاكمة فى مصر فكتب الى الماذرائى يقر احمد بن كيغلغ فى ولاية مصر وينهى اليه فى الوقت نفسه « أن الأمر يصير اليك فتقلد من شئت وتصرف من شئت » [2] .

ثم وقعت فى بغداد أحداث كان لها أثر خطير الشأن فى حكم مصر فقد عين الخليفة الراضى بالله الفضل بن جعفر بن الفرات وزيرا لكشف أمور مصر ومنحه سلطات مطلقة . وكان بنو الفرات يكرهون الماذرائيين ويحسدونهم ، فلم يكن غريبا أن يعمل الفضل على القضاء على سلطان الماذرائيين فى مصر وزاد الخطر على هؤلاء حين تصاهر محمد بن طغج الاخشيد مع الوزير الفضل بن جعفر بأن زوج الاخشيد ابنته من ابنه جعفر بن الفضل . واستعمل الفضل السلطة المطلقة التى منحها فى تدبير أمور مصر فعين محمد بن طغج واليا عليها .

وسوف نعود فى الباب القادم الى الكلام على المراحل التى مر بها استيلاء ابن طغج على الحكم فى مصر .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٢

(٢) المرجع نفسه ص ١١

(٣) المرجع نفسه ص ١١

بقى علينا أن نتحدث عن علم آخر من أسرة الماذرائيين . هو أبو على الحسين ابن أحمد الماذرائى المعروف بأبى زنبور [١] . ولسنا نعرف عن نشأته إلا أنه كان كاتبا للوالى فى اقليم من أعمال البصرة براتب شهرى قدره عشرون دينارا [٢]. والراجح أنه قدم الى مصر مع عميد الأسرة ثم عين فى وظيفة رئيسية فى الشام من قبل أحمد بن طولون . وعاد الى مصر بعد ذلك وظل مقيما بها الى أن أوفد مرة ثانية الى الشام سنة ٢٨٣ وسنة ٢٨٤ هـ مع بدر القائد الطولونى على رأس جيش ليصلحا الحال فيها وليستخلفا على دمشق طغج بن جف من قبل هارون بن خمارويه وليستخلفا غيره على سائر الأقاليم الشامية [٣]. والراجح أنه بعد عودته الى الفسطاط كان يتركها ويقيم أحيانا فى دمشق كما تشهد بذلك قصة زواج ابنته بابن القاضى أبى زرعه محمد بن عثمان وهى القصة التى نقلها ابن حجر عن ابن زولاق وأطنب عندها فى الكلام على عظمة الحفل الذى أقيم فى تلك المناسبة [٤] .

ثم كان للحسين الماذرائى شأن كبير فى سقوط الدولة الطولونية ونجاح الجيش العباسى الذى كان يقوده محمد بن سليمان ، إذ انضم الماذرائى سنة ٢٩١ هـ إلى محمد بن سليمان ومعه بدر الحمامى والى مصر من قبل هارون بن خمارويه . وهكذا خان الماذرائى قضية الطولونيين واستطاع بذلك أن يثبت صلاحيته للعمل مع النظام الجديد فى مصر وأن يضمن بقاء نفوذ أسرته . ولم تكن الحكومة المركزية لتكره الإفادة من خبرته بالشئون المالية المصرية فلا غرو إذا عينته عاملا على الخراج فى مصر بعد أن أبعدت عنها سائر أفراد أسرته المخلصين لبنى طولون ، والواقع أن انتقال الحسين

---

(١) أبو بكر محمد بن يحيى الصولى : أخبار الراضى بالله والمتقى بالله من كتاب الأوراق ، نشر هيورث دن ص ٢٣٧ — ٢٣٨ والكندى : الولاة والقضاة (الملحق ص ٥٢١) وياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ٣٥٣ (مادة ماذرايا) والمقريزى : النص العربى المطبوع من كتاب المقفى فى رسالة جوتشلك ص ١١٩ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢١٥ — ٢١٦

(٢) هلال الصابئ : تاريخ الوزراء ص ٢٢

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٠١ وابن الأثير: تاريخ الكامل ج ٧ ص ١٧٤ وابن خلدون : كتاب العبر ج ٤ ص ٣٠٩

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٢١ — ٥٢٢

الماذرائى إلى جانب الحكومة المركزية أكسبه رضا الدوائر الرسمية فى بغداد بسبب ما كان له من شأن فى القضاء على الطولونيين . وحسبنا أن نقرأ القصيدة التى رواها الكندى للشاعر الحبيشى فى بيان فضل هذا الماذرائى فى سقوط بنى طولون[١] .

وهكذا حل الحسين الماذرائى محل ابن أخيه أبى الطيب أحمد بن على فى إدارة الشئون المالية فى مصر وضم إليه الخليفة المكتفى النظر فى أموال بنى طولون وضياعهم[٢] . ثم كانت ثورة ابن الخليج التى مر بنا الكلام عليها وظل الحسين الماذرائى مخلصا للحكومة المركزية . وكان قد أعد نحو تسعمائة ألف دينار عبأها فى الصناديق لتحمل إلى الخليفة فى بغداد فلما أحس هو والوالى عيسى النوشرى بانتصار ابن الخليج وقرب استيلائه على العاصمة وزعا تلك النقود وحمل الحسين بن الماذرائى سجلات الخراج والدواوين حتى يصعب على ابن الخليج جمع الخراج وإدارة الشئون المالية[٣] . وفر الوالى والماذرائى إلى الإسكندرية لتنظيم المقاومة والاستعداد لقتال ابن الخليج . ولما تم لها دخول الفسطاط ثانية سنة ٢٩٣ هـ عاد أبوزنبور الماذرائى إلى ولاية الخراج .

ولكننا نلاحظ أن أبا زنبور الماذرائى وأخاه أبا اسحق ابراهيم بن أحمد[٤] يرد ذكرهما كثيراً فى تاريخ الأحداث التى وقعت فى بغداد منذ تولية الخليفة المقتدر بالله سنة ٢٩٥ هـ (٩٠٨ م) . والواقع أن تاريخ الماذرائيين مرتبط بالتنافس بين الوزيرين العباسيين على بن عيسى وعلى بن محمد بن موسى بن الفرات فإن الأول كان صديقاً للماذرائيين

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٥١ ، وهلال الصابئ : تاريخ الوزراء ص ٩٢

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٥٨ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٧ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤١ — ١٤٥

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٩ — ١٥٠

(٤) كتب ابن عساكر (فى التاريخ الكبير ج ٢ ص ١٦٧) أن هذا الماذرائى كان من كتاب خمارويه وكان معه بدمشق حين قتل فخرج من دمشق الى بغداد فى أحد عشر يوما وأخبر المعتضد بقتل خمارويه وتوفى سنة ٣١٣ هـ .

بينما كان الثانى من أعدائهم الألداء [١] . وقد اشترك على بن عيسى وابراهيم بن أحمد الماذرائى فى الثورة التى أدت إلى خلع المقتدر وبيعة ابن المعتز ، ولما أخفقت هذه الثورة وولى المقتدر على بن الفرات الوزارة أطلق جماعة ممن كانوا قد بايعوا المعتز ومنهم ابراهيم بن أحمد الماذرائى [٢] ولكنه عزل أبا زنبور الماذرائى عن خراج مصر وولى عليه أحمد بن محمد بن بسطام فى ربيع الأول سنة ٢٩٦ . وظل الأخير فى هذا المنصب إلى أن توفى فى العام التالى وخلفه ابنه أبو القاسم على بن أحمد بن بسطام [٣] ، ثم عزل على بن أحمد هذا وعادت ولاية الخراج إلى أبى الطيب أحمد الماذرائى سنة ٣٠٠ هـ واستعاد الماذرائيون قسطاً وافراً من سلطانهم فى بغداد ومصر حين آلت الوزارة فى الدولة العباسية إلى على بن عيسى سنة ٣٠١ هـ فقلد أبا بكر محمد بن على الاشراف على الخراج والإدارة فى مصر وقلد أبا زنبور الماذرائى الاشراف على الخراج فى الشام ، وهكذا أصبحت الشئون المالية فى مصر والشام فى يد هذه الأسرة وكان الاتصال بين أفرادها قويا والتعاون موفوراً .

ولكن عودة ابن الفرات إلى الوزارة بعد سقوط على بن عيسى سنة ٣٠٤ هـ أدت إلى الحد من سلطان الماذرائيين وإلى مصادرة بعض أملاكهم [٤] . ثم عزل ابن الفرات ورد اليهم بعض ماصودر من أملاكهم وأعيد اليهم الإشراف على مصر والشام بعد أن اعترف ابن الفرات بصحة ما قرره أبو زنبور من أنه سلمه أثناء وزارته الثانية ستمائة ألف دينار . وكان ذلك فى مجلس بقصر الخليفة للمناظرة بين الوزير المعزول ابن الفرات والوزير الجديد حامد بن العباس ومعه أبو زنبور ليسمع الأول التهم التى يوجهها اليه الثانى وليرد عليها إذا استطاع . ومما يلفت النظر مما دار فى هذه المناظرة أقوال ابن الفرات بشأن ثروة الماذرائيين والأراضى الواسعة التى يملكونها فى مصر والشام [٥] .

---

(١) الراجح أنه كان ينسب إلى الماذرائيين مساعدة خصومه ومدهم بالأموال .

(٢) عريب : صلة تاريخ الطبرى (فى تاريخ الطبرى ج ١٢ ص ١٦) .

(٣) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٦١ و H. Gottschalk : Die Madaraijjun pp. 54-55.

(٤) عريب : المرجع السابق ج ١٢ ص ٣٤

(٥) المرجع نفسه ج ١٢ ص ٣٩ ، ومسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ٦١ ، وهلال الصابى : تاريخ الوزراء ص ٩٢ — ٩٤

وقد اتفق أبو زنبور مع الحكومة قبل عودته إلى مصر (فى نهاية سنة ٣٠٦ هـ) على أن يقدم إلى خزانتها كل عام مليون دينار من خراج مصر والشام بعد أن يقوم بنفقات الجيش والإدارة . والواقع أنه لم يبر بهذا الوعد بسبب هجوم الجيوش المغربية وما تطلبه صدها من نفقات ثم بسبب اقامة جموع غفيرة من الجند العباسيين فى مصر بعد ذلك للدفاع عنها وصد الفاطميين إذا عادوا إلى الهجوم .

وحدث أن مؤنسا الخادم عزل أبا زنبور عن خراج مصر وولى محمد بن جعفر القرطى [١] . ولكن الخليفة المقتدر رد إلى الماذرائيين هذا العمل [٢] .

والواقع أن أبا زنبور كان قد أفلح فى كسب محبة مؤنس منذ قدومه من العراق وذلك بفضل إقباله على إكرامه وبذل النفقات فى سبيله وسبيل جنده [٣] .

ولما عاد ابن الفرات إلى الوزارة فى بغداد سنة ٣١١ هـ استدعى أبا زنبور إلى بغداد وصادر جزءاً كبيراً من أموال سائر أفراد أسرته [٤] ، ثم انتهت وزارة ابن الفرات وعين على بن عيسى لكشف مصر «والتفتيش» على شئونها [٥] فكان يزورها من حين إلى آخر ليطلع على إدارة شئونها المالية . وقد خلف لنا هلال الصابى [٦] نصاً تاريخياً يحدثنا عن حادث وقع فى إحدى هذه الزيارات الكشفية التى كان يقوم بها ابن عيسى . وبالنظر إلى أهمية هذا النص وإلى ما يستنبط منه عن الشئون الإدارية والمالية فى الخلافة حينئذ فاننا نفضل أن ننقله هنا ، فهو وثيقة عظيمة الشأن :

---

(١) هذه هى المرة الأولى التى قلد فيها القرطى خراج مصر . والمعروف أنه ولى ثانية ، حين كان أبو بكر الماذرائى عاملا على الخراج ، ولكنه لم يصل إلى مصر إذ توفى فى الطريق كما ذكرنا من قبل (ص ٤٢) .

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٨

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣١ — ٣٣٢

(٤) ابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٨ ص ٤٨ ومسكويه ، كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ١١٤

(٥) ابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٨ ص ٥٤ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢١٣

(٦) تاريخ الوزراء : ص ٣١٩ — ٣٢١

« وحدث أبو محمد الحسن بن محمد الصلحى قال : حدثنى أبو الحسن بن ظفر الكرخى بمصر قال : كنت أكتب لأبى على الحسين بن أحمد الماذرائى ووافى أبو الحسن على بن عيسى من مكة فى أيام وزارة أبى القسم عبد الله بن محمد بن خاقان للاشراف على مصر والشام فدخل إلى مصر وتحته حمار وعليه طيلسان . وكان المتولى للمعونة[1] تكين فتلقاه وترجل له وعظمت هيبته فى النفوس جداً وجلس ونظر . ثم ركب فى بعض الأيام متفرجاً وعاد فحين دخل من باب الدهليز ونحن مجتمعون فى داره لانتظاره صاح : اللصوص ! ففزعنا كلنا خوفا من أن يكون قد وقف لنا على خيانة . فلما استقر فى مجلسه قال : يا معاشر الناس اجتزت الساعة على جسر قارون (وهو بزند من البزندات وتسمى البزندات بمصر جسوراً) فقدرت النفقة عليه عشرة دنانير ووجدت العمال يحتسبون عنه على السلطان ستين ألف دينار فى كل سنة . وكرر ذلك وأكثر التعجب منه والقول فيه . وكان أبو على (الماذرائى) حاضراً فلم يجبه عن كلامه . فقال : الشأن أننى أقول ما أقوله فلا تجيبنى عنه يا أبا على ؟ فنهض وانصرف . واغتاظ أبو الحسن على بن عيسى من ذلك وأطبق دواته وقال لعن الله أمر السلطان إذا انتهى إلى هذا الحد . وقام ودخل ، فانصرف الناس ومضيت إلى أبى على قلقا بما شاهدته وسمعته ، ووجدته قد أنفذ خادما إلى على بن عيسى يستأذنه فى حضوره عنده على خلوة . فأذن له ومضى وأطال فجلست أنتظره . فلما عاد سألته عما جرى فقال : دخلت إليه وقلت له : لم أترك جوابك سوء أدب عليك ولا استهانة بقولك وإنما كرهت أن أعترف بحضرة الناس فألزم نفسى ما لا يلزمها أو أجيبك بما حضرت الآن لذكره فيكون ما عليك فيه أكثر مما علىّ فيه فامتنعت إكراما لك وصيانة . ثم قلت له : كم جارى[2] ؟ فقال : ثلاثة آلاف دينار فى الشهر[3] . فقلت : يمكننى وأنا عامل مصر أن أكون

---

(١) المتولى على المعونة أو صاحب المعونة هو الوالى أو صاحب الشرطة . راجع Wiet : Corpus Inscriptionum Arabicarum. Egypte, T. II. pp. 30, 54, 231 وما يشير إليه من مراجع . وانظر الأب أنستاس الكرملى : النقود العربية وعلم النميات ص ٥٥

(٢) أى راتبى : أنظر Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes I. p.190.

(٣) قد يبدو هذا الراتب كبيراً ولكن الظاهر أنه يشمل رواتب الموظفين الذين يعينهم الماذرائى لخدمته ومن نسميهم اليوم موظفى مكتبه .

بغير كتاب ولا عمال ولا كُرَاع[1] ولا جمال ولا إعطاء ولا أفضال ؟ قال : لا ، قلت أفلا تعلم أن لى حرما وأولاداً وأقارب وأهلا أحتاج لهم إلى مؤونة ؟ قال : بلى ، قلت : فأخلو من أن يرد علىّ زوار بكتبك وكتب أمثالك من الرؤساء فتقتضى المروءة أن أبرهم وأصلهم ؟ قال . بلى لعمرى ، قلت فهذا الجبار الذى أجاوره[2] وفائق خادمه له ثمانون مرقدا وهو متسلط على الأمر كله يمكننى أن أقيمه على الطاعة وأمنعه ادخال اليد فى الضياع إلا بمؤونة أتكلفها له وأولاده وخدمه وكتابه حتى يستقيم مابينى وبينه ؟ قال : هذا ما لا بد منه . قلت : فالخليفة والسيدة والخالة والقهرمانة ومؤنس ونصر الحاجب وكتابهم وأسبابهم[3] يجوز أن لا أهاديهم فى كل سنة ؟ قال : هذا رسم لا يمكن الاخلال به . قلت : فالوزارة إذا تقلد الواحد منهم هل يدخل داره شىء قبل ما يحمله خليفتى إليه ؟ وإذا نكب فهل يؤدى من مال مصادرته[4] شيئا قبل ما يستدعيه منى ؟ وهذا أنت أيدك الله (وأنت أعف الوزراء ومن لا يعرف له نظير) ألم أحمل إليك فى وقت كذا وكذا وفى وقت كذا وكذا وأجر على عيالك فى مدة كذا وكذا ؟ فقال : أنا والله شاكر لذاك . فقلت : ما ذكرت هذا اعتدادا عليك وإنما ذكرته لتعلم أنه يلزمنى لغيرك مثله وأكثر منه . وهذا حق بيت المال فى ضياعك بمصر والشام وهو بضعة عشر ألف دينار فى السنة أديت منها درهما واحداً ؟ فقال : ما أدرى . فقلت : هذا مال عظيم ولست أبرح أو أعلم أنه قد حصل لك أو كان أصحابك خانوك فيه[5] حتى أرتجعه منهم للسلطان ؟ فأعاد الشكر . فقلت : يا سيدى فمصادرتى فى كل وقت تزيد على ألف ألف دينار هل من الثلاثة الآلاف الدينار الجاري تكون ؟ فقال : دع هذا

---

(١) الكراع الخيل والبغال والحمير .

(٢) يقصد الوالى .

(٣) أقاربهم وأتباعهم .

(٤) هو المال الذى يلزم بدفعه وفاء لما ينسب إليه من اختلاس أو عقاباً على ما يوجه إليه من تهم . أنظر Dozy : op. cit. 1. p. 822.

(٥) أى حتى أعلم هل أدى اليك أو أوهمك أتباعك أنهم دفعوه عنك لبيت المال .

يا أبا على فان كبار الرجال يغضى لهم السلطان عن كثير الأموال . وما سمعناه بعد ذلك أعاد فى شىء من أمور أعمالنا قولا » .

وهكذا يتبين لنا من هذا النص كيف كان كبار المشرفين على الادارة المالية يختلسون أموال الدولة بما يقدمون من بيانات خاطئة لوجوه الصرف حتى تتهيأ لهم الأموال الطائلة يدفعون قسطاً كبيراً منها فى رشوة الوزراء ورجال البلاط وسائر كبار الموظفين .

وتوفى أبو زنبور بمصر سنة ٣١٧ هـ[1] بعد أن أفلح فى مد نفوذ الماذرائيين حتى أصبحت مصر والشام فى يدهم من الناحيتين المالية والاقتصادية وامتد نفوذهم إلى العراق فكان لهم فى بغداد شأن عظيم . وحسبنا شاهدا على الثروة العظيمة التى جمعها الماذرائيون ما نقرأه من بيانات فى بعض المراجع التاريخية فقد أشار الوزير على بن محمد بن الفرات عند مناظرته الوزير حامد بن العباس ، إلى أن أبا زنبور الماذرائى وابن أخيه محمد بن على كانا يملكان فى مصر مائة فرسخ[2] مربع من الضياع[3] . وروى أبو بكر محمد الماذرائى أن محمد بن طغج الأخشيد صادر من بضائعه ما يساوى أكثر من ثمانين وبية من الدنانير[4] . وروى المقريزى أن صدقات أبى بكر الماذرائى بلغت مرة فى سنة واحدة نيفا وستين ألف دينار وأنه ملك بمصر من الضياع الكبيرة ما لم يملكه قبله أحد فبلغ إيراد ضياعه أربعمائة ألف دينار فى كل سنة سوى الخراج[5] .

ولا ريب فى أن أهم الوسائل التى جمع بها الماذرائيون هذه الثروة الطائلة ضمانهم خراج مصر والشام فى بعض السنين أى تعهدهم بدفع مبلغ معين إلى خزانة الحكومة

(١) عريب : صلة تاريخ الطبرى (جزء ١٢ من تاريخ الطبرى) ص ٧٥
(٢) الفرسخ نحو خمسة كيلو مترات وسبعمائة واثنين وستين متراً أو ثلاثة أميال .
(٣) هلال الصابىء : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٩٣ — ٩٤
(٤) المقريزى : المقفى ص ١٢٦ (من النص العربى المنشور فى رسالة جوتشلك عن الماذرائيين) .
(٥) المرجع نفسه ص ١٢٧

المركزية فى بغداد ، على أن يأخذوا على عاتقهم جباية الخراج فى هذين الاقليمين [١] . وطبيعى أنهم كانوا يجمعون من المال أكثر مما يدفعون إلى بيت المال . كما كانوا يحتجون فى بعض الأحيان بكثرة نفقات الجند فلا يدفعون إلى بغداد ما تعهدوا بدفعه . ومما يؤيد تأخرهم فى الدفع ما تحدث به المقتدر بالله إلى مؤنس الخادم ، حين أراد إبعاده عن بغداد بتدبير ابن الفرات فى سنة ٣١١ هـ ، فقد ختم هذا الحديث بقوله : « والوجه أن تخرج إلى الرقة وتتوسط فى عملك وتنفذ عمالك فى اقتضاء الأموال وتستخرج ما يجب على الماذرائيين من الأموال العظيمة التى بذلوا بها خطوطهم وتهابك عمال المعاون بمصر والشام فيستقيم أمر الملك » [٢] .

---

(١) مثال ذلك ما قرره ابن الفرات فى المناظرة التى أشرنا إليها ، فقد أشار إلى أنه « أخذ خط الحسين بن احمد الماذرائى بحضرة أمير المؤمنين بألف ألف دينار عن مصر والشام خلاصاً للحمل بعد النفقات ومال الجند فى تلك الأعمال . أنظر هلال الصابىء : المرجع السابق ص ٢٩٠

أنظر أيضاً مسكويه : الجزء الخامس من كتاب تجارب الأمم ص ١٠٦

(٢) مسكويه : المرجع نفسه ص ١١٦

الباب الثّاني

أسرة الأخشيد

obeikandl.com

obeikandl.com

أسرة الاخشيد

(١)

حكمت الدولة الاخشيدية مصر نحو ٣٤ سنة . ومؤسسها هو محمد بن طغج الاخشيد ، وقد خلفه فى حكم مصر ابناه أبو القاسم أونوجور ثم أبو الحسن على بن الاخشيد . وكان القائم بأمر مصر والمدبر الحقيقى لها فى عهد كل من هذين الابنين هو العبد الحبشى أبو المسك كافور ، الذى كان أبوهما قد اشتراه ثم أخذ يرتقى فى مناصب الدولة حتى أصبح قائدا فى الجيش ومربيا لهما ، وصارت له الوصاية عليهما مدة توليهما إمارة مصر ، ثم أصبح بعد وفاتهما الحاكم الفعلى والاسمى فيها . وبعد وفاة كافور ولى حكم مصر أبو الفوارس أحمد بن على حفيد الاخشيد . وكان صبيا فى الحادية عشرة من عمره ولم يطل حكمه فى البلاد ، إذ كانت مصر فى ذلك الحين يهددها القرامطة فى الشرق والفاطميون فى الغرب والنوبيون فى الجنوب ، كما كانت تنتابها كوارث اقتصادية ويفتك بها القحط والوباء فاضطرب الأمن فيها . وكانت كل هذه الظروف بالاضافة إلى ضعف الجيش المصرى وعجز خلافة بغداد مما شجع الفاطميين على غزو مصر بقيادة جوهر الصقلى .

(٢)

تنسب الدولة الاخشيدية إلى الاخشيد وهو اللقب الذى منحه الخليفة العباسى الراضى بالله لمحمد بن طغج فى سنة ٣٢٦ هـ (٩٣٧ / ٩٣٨ م) على رأى [١] أو فى سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٩ م) على رأى آخر [٢] . وقد روى ابن سعيد نقلا

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٣

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٤

عن الحسن بن زولاق أن محمد بن طغج كتب إلى الراضى بالله يسأله أن يلقب بالاخشيد وقال فى كتابه : « وقد كنى أمير المؤمنين جماعة ولقبهم، فليبشرنى بما سألت » فاستفسر الراضى من حاجبه ذكا عن معنى « الاخشيد » ولم يعرف الحاجب هذا المعنى ، فسأل وقيل له ان هذا اللفظ معناه « عبد » ولكن لقب به ملك الملوك . ويبدو أن المعنى الأصلى لهذا اللفظ جعل الراضى لا يرى بأسا فى منح طغج هذا اللقب ، فقال : « لا نبخل عليه بهذا ، اكتبوا له بذلك » [١] .

وقيل أن لفظ « الاخشيد » [٢] معناه بلغة إقليم فرغانة « ملك الملوك » وانه كان لقب ملوكهم كما كان قيصر لقب ملوك الروم وكسرى لقب ملوك العجم وفرعون لقب ملوك مصر القدماء [٣] .

وكانت فرغانة ، مثل سائر أقاليم ما وراء النهر ، يسيطر عليها كبار الملاك والفرسان . وكان أمير تلك البلاد أكبر الملاك والفرسان فيها . وكان يسمى « دهقان » ولعله كان يدعى بلقب « اخشيد » .

ومؤسس الدولة الاخشيدية هو أبو بكر محمد بن طغج بن جف بن بلتكين ابن فورى بن خاقان [٤] . وتذكر بعض المراجع التاريخية القديمة أنه من أولاد ملوك فرغانة [٥] . وكتب المستشرق الفرنسى هوار (Huart) أن محمد بن طغج لقب بالاخشيد لأن أباه من نسل أمراء فرغانة الذين كان لهم هذا اللقب الايرانى الأصل (من Khchaêta بمعنى الذكى أو النابه le brillant) [٦] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٣ — ٢٤

(٢) ورد هذا اللفظ بالدال المهملة فى معظم المراجع التاريخية كالكندى وابن الأثير وابن سعيد والمقريزى ولكن ضبطه ابن خلكان وأبو المحاسن بالذال المعجمة .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٢٧

(٤) ابن سعيد : المغرب ص د . وفى ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٣) محمد بن طغج ابن جف بن بلتكين بن فوران بن فورى بن خاقان . وقد أضاف المرجمان بعد خاقان أنه « صاحب سرير الذهب » وسرير الذهب اقليم من أقاليم بحر الخزر ، أنظر ياقوت : معجم البلدان مادة « سرير » والمسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤١

(٥) ابن سعيد وابن خلكان : المرجمان السابقان .

(٦) Huart : Histoire des Arabes : T. I. p. 326.

ولكن هذه النسبة إلى ملوك فرغانة ليست ثابتة كل الثبوت . وهى ، إن دلت على شيء فانما تدل على نسبة الاخشيد إلى اقليم فرغانة . ولعله عندما وصل إلى منصب الولاية أراد أن يصل نسبه ببيت الامارة فى موطنه إعلاءً لشأن أسرته . ولسنا أول من شك فى تلك النسبة . فقد كتب القلقشندى فى كلامة على ملوك فرغانة . « وكان كل منهم يلقب الاخشيد ولذلك لقب الراضى بالله العباسى محمد بن طغج صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية بالاخشيد لأنه كان فرغانياً »[١] .

وكان جف جد الاخشيد من بين نفر من فرسان فرغانة وشجعانها ، قدموا أو جيء بهم إلى الخليفة العباس المعتصم بالله فعنى بهم أشد العناية وعول على أن يتخذهم عوناً له وأقطعهم قطائع فى مدينة سامرا . وظلت قطائع جف تنسب إليه حتى زمن ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١هـ (١٢٨٢م) .

ولما توفى المعتصم انتقل جف إلى خدمة ابنه الواثق . ولما مات الواثق سنة ٢٣٢ هـ (٨٤٧م) صحب جف أخاه المتوكل وظل فى بطانته إلى أن توفى فى بغداد فى الليلة التى قتل فيها المتوكل سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م)[٢] .

أما طغج[٣] بن جف فقد التحق بعد وفاة أبيه بخدمة أحمد بن طولون[٤] بعد أن اتصل بلؤلؤ الذى كان من اتباع هذا الأمير . والظاهر أنه انضم بعد ذلك إلى اسحق ابن كنداج والى الموصل وعدو ابن طولون ، ثم كان الصلح بين خمارويه بن أحمد بن طولون واسحق بن كنداج فعاد طغج بن جف إلى العمل لبنى طولون وعينه خمارويه واليا على دمشق وطبرية[٥] .

وحدث فى سنة ٢٨١هـ أن أرسل خمارويه . عامله طغج بن جف لغزو البيزنطيين ، فسار طغج من طرسوس على رأس جيش كبير وتقدم فى آسيا الصغرى حتى بلغ طرابزون

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٨٤

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٣ — ٥٤ وابن سعيد : المغرب ص ٥

(٣) تذكر بعض المراجع القديمة مثل ابن سعيد وابن خلكان أن طغج معناها عبد الرحمن .

(٤) كتب ابن سعيد (المغرب ص ٥) أن ابن طولون « فلده مصر » ولعله يقصد أنه قلده عملا رئيسياً فى إدارتها .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٤

وهزم الروم فى عدة وقائع وعاد إلى دمشق بعد بضعة شهور محملا بالغنائم [١] . ويبدو أن خمارويه غضب على طغج بعد هذه الحملة لأنه كان قد طلب منه أن يقبض على راغب [٢] والى طرسوس وأن يقتله ولكن الترحيب الذى لقيه طغج من هذا الوالى حببه إلى نفسه وجعله يصغى إلى رجاء بعض أهل طرسوس فى الابقاء عليه ، فاشتركا فى غزو الروم وعاد طغج يتلمس المعاذير عند خمارويه لامتناعه عن القبض على راغب . وعزم خمارويه على الفتك بطغج ، غير أنه قتل قبل تحقيق نيته [٣] .

ويروى أن طغج بن جف كان معه فى القصر ليلة قتله وأنه طارد الخدم الذين اشتركوا فى ذبحه فقبض عليهم وأمر بذبحهم وصلبهم [٤] . وظل طغج واليا على دمشق وطبرية فى عهد جيش بن خمارويه . ثم ثار القواد على جيش وقتلوه وولوا أخاه هارون بن خمارويه سنة ٢٨٣ ، وكان طغج من الساخطين على جيش فشق عليه عصا الطاعة فى دمشق . وكان بين القواد الثائرين أخ لطغج هو القائد بدر بن جف [٥] .

ولما تولى هارون بن خمارويه كان طغج يحكم الشام مستقلا عن مصر الى حد كبير فخرج اليه بدر الحمامى قائد الجيش المصرى ومعه الحسين بن احمد الماذرائى وأعادا الشام الى حظيرة الدولة الطولونية بعد أن نجحا فى الوصول الى تسوية سلمية مع طغج ابن جف وأقراه فى حكم دمشق من قبل هارون بن خمارويه [٦] .

---

(١) ابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٧ ص ١٦٧ وأبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٦٠ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٨٦

والملاحظ أن المسعودى أشار إلى هذا الغزو فى مروج الذهب وسمى قائده « طغج ابن شبيب » (ج ٨ ص ١٤٦) . وفى طبعة المطبعة البهية سنة ١٣٥٦ « طغج بن شيث » (ج ٢ ص ٤٧١) .

(٢) اقرأ عن هذا الوالى وعلاقته بالطولونيين والعباسيين Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 122, 140, 141. والمصادر العربية المذكورة فى هذا المرجع . أنظر أيضا ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٣٥٢

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٦

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦٠

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ١٧٠

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٠١

وبينما كان طغج بحكم الشام لهارون تقدمت جموع القرامطة بعد أن طاردتهم جيوش الخلافة العباسية فى العراق[١] فعاثت فى الشام فسادا وقتلت كثيرا من سكانها سنة ٢٨٩ هـ واتصل الأمر بطغج ولم يقدر خطورته ، وظنهم من بعض الأعراب فخرج للقائهم بغير أهبة ولا عدة « ومعه البزاة والصقورة كأنه خارج للصيد » على حد تعبير أبى المحاسن[٢] ، وكان النصر للقرامطة وعاد طغج إلى دمشق منهزما بعد أن قتل عدد كبير من جنده .

وفى السنة التالية أرسل طغج بن جف جيشا آخر لقتال القرامطة ولكنه هزم شر هزيمة ، كما قدم من مصر جيش لقتالهم بقيادة بدر الحمامى ولكنه لم يكن أحسن حظا . وتشجع القرامطة فأقبلوا على حصار دمشق وأشرف أهل هذه المدينة على الهلاك . وكان المكتفى بالله الخليفة العباسى الجديد يراقب هذا النضال بين القرامطة والطولونيين ، ولا ريب فى أنه أراد أن يضرب ضربة حاسمة ليتخلص من الفريقين فبعث إلى الشام بجيش كامل العدة على رأسه القائد محمد بن سليمان . وعلم القرامطة بقدوم هذا الجيش فبادروا بترك دمشق بعد أن دفع لهم أهلها مبلغا كبيرا من المال ثم انسحبوا إلى حمص وأدركهم الجيش العباسى وهزمهم على مقربة من حماه سنة ٢٩١ هـ[٣] .

وكان طغج بن جف من القواد الطولونيين الذين لم يرضوا عن قتل هارون بن خمارويه ولم يعترفوا بخلفه شيبان بن أحمد بن طولون . وقد قرر هؤلاء القواد أن يتصلوا بالجيش العراقى الذى كان يقوده محمد بن سليمان والذى سار إلى مصر للقضاء على حكم بنى طولون بعد أن أفلح فى هزيمة القرامطة . وتم انضمامهم إلى هذا الجيش عند مدينة العباسة وكانوا ومن معهم من الجند عونا له فى فتح مصر .

---

(١) اقرأ عن القرامطة مقال الأستاذ ماسنيون Massignon فى دائرة المعارف الاسلامية والفصل الذى كتبه عنهم فى A Volume of Oriental Studies Presented to Professor Browne pp. 329-338. والطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١١ ص ٣٣٧ وما بعدها .
ابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٧ ص ١٧٥ وما بعدها .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٠٤ وابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٧ ص ١٨٢

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١١ ص ٣٧٧ — ٣٩١

ويبدو أن محمد بن سليمان أراد أن يفيد من خبرة طغج بن جف أو أراد أن يتخلص من وجوده فى مصر فبعث به واليا على قنسرين وضم اليه جمعا من جند ابن طولون [١] ولكنه لم يبق طويلا فى هذا المنصب ؛ فان محمد بن سليمان عند ما غادر مصر ، صحب معه الى بغداد طغج بن جف وولده وأخاه [٢] . وكان وزير المكتفى بالله ، الخليفة العباسى حينئذ ، هو العباس بن الحسن . ولم يكن محمود السيرة ، بل كان عاكفا على لذاته ومعروفا بالمكر والدهاء [٣] . وقام الخلاف بين هذا الوزير وطغج بن جف . وكتب ابن زولاق فى تفسير هذا الخلاف أن الوزير كان يريد من طغج اذا لقيه فى موكبه أن يترجل له وأن طغج لم يكن ليقبل ذلك فما زال الوزير بالخليفة المكتفى يوغر صدره على طغج ويحذره من اخلاصه لبنى طولون حتى أمر الخليفة بسجنه فحبس ومعه ابناه محمد وعبيد الله [٤] . وظل طغج محبوسا الى أن توفى سنة ٢٩٤ هـ وأطلق ولداه ولزما خدمة الوزير العباس بن الحسن الى أن عمل الحسين بن حمدان على القضاء عليه ، فاشتركا فى قتله أخذا بثأرهما . ثم هرب عبيد الله بن طغج الى شيراز فخدم أميرها وخرج محمد بن طغج الى الشام . واستطاع عبيد الله العودة الى بغداد فى أيام المقتدر بالله والظاهر أنه وفق فيها الى منصب رئيسى [٥] .

وكان طغج مشهورا بحبه للتطيب حتى يولع فى ذلك فقيل انه كانت له خزانة طيب تحمل فى سفره على نيف وخمسين جملا وأنه كان اذا تطيب لم يخف على أكثر أهل دمشق بخوره [٦] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤٨

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٣ ص ١٤٦

(٣) ابن الطقطق : الفخرى ص ١٩٢

(٤) جاء فى ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٤ أن الذى حبس مع طغج هو ابنه محمد وحده .

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ٧

(٦) المصدر نفسه ص ٥

وكان لطغج سبعة أبناء ذكر منهم ابن سعيد خمسة : هم أبو بكر محمد وأبو الحسين عبيد الله وأبو المظفر الحسن وأبو نصر الحسين وأبو القاسم على [١] .

وكان أكبر هؤلاء الأخوة أبا بكر محمد بن طغج . وقد ولد بمدينة بغداد فى منتصف شهر رجب سنة ٢٦٨ هـ (٨٨٢ م) [٢] . ولسنا نعرف شيئا عن نشأته ، ولكننا نلقاه لأول مرة عند ما كان أبوه واليا على دمشق وطبرية فانه كان يستخلفه فى الحكم على هذه المدينة الأخيرة .

ولما خرج محمد بن طغج الى الشام ، بعد قتل الوزير العباس بن الحسن ، اتصل بأبى العباس أحمد بن بسطام الذى كان عاملا على الخراج فيها . وكان يخدمه فى شئون الصيد على وجه خاص فكان يحمل له الجوارح حتى عرف باسم بازيار ابن بسطام [٣] . ولما تقلد ابن بسطام خراج مصر سنة ٢٩٦ هـ صحبه محمد بن طغج اليها . ثم توفى ابن بسطام فى العام التالى وخلفه على خراج مصر ابنه أبو القاسم على بن أحمد بن بسطام . وظل ابن طغج فى خدمته فترة من الزمن [٤] . وعزل على بن بسطام سنة ٣٠٠ هـ . أما ابن طغج فقد اتصل بتكين والى مصر وعندما قدم الجيش الفاطمى لغزو مصر بقيادة جباسة سنة ٣٠٢ هـ أبلى محمد بن طغج بلاء حسنا مع تكين فى قتال هذا الجيش وتوثقت صلته به حتى أصبح منه « بمثابة الولد » [٥] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٥

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٥

(٣) البازيار أو البازدار هو الذى يحمل على يده الطيور الجوارح المعدة للصيد ، أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٩ و

L. Mercier : La Chasse et les Sports chez les Arabes. P. 81 et suiv. figs 4 et 5.

Zaky M. Hassan : Hunting as Practised in Arab Countries of the Middle Ages pl. 3 & 9.

E. Pauty : Bois Sculptés d'Eglises Coptes pl. 2 & 3.

(٤) مما يلفت النظر أن ابن خلكان لا يعرف شيئاً عن اتصال محمد بن طغج بأسرة ابن بسطام وأنه يشير إلى الفترة الواقعة بين خروجه من بغداد واتصاله بتكين بقوله « وهرب أبو بكر إلى الشام وأقام متغرباً فى البادية سنة ثم اتصل بأبى منصور تكين » (وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤) .

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ٧

ولما نحى تكين عن ولاية مصر وخرج الى الشام صحبه ابن طغج ثم تقلد تكين ولاية دمشق فأناب عنه محمد بن طغج فى عمان وجبل السراه [١] . ويروى أن حادثا وقع لابن طغج أثناء نيابته عن تكين فى عمان وأدى الى شهرته ولفت نظر البلاط الخليفى اليه . وبيان ذلك أن ابن طغج عرف سنة ٣٠٦ هـ أن اعرابا من لخم وجذام كمنوا لركب الحجاج المارين بالشام ، وكان من بينهم نفر من وجوه أهل العراق وجارية لأم الخليفة المقتدر . فخرج محمد ومعه أخوه على بن طغج على رأس جمع من الجند وهزم قطاع الطرق شر هزيمة فشكره الحجاج وأطنبوا فى الحديث عن شجاعته فى بغداد وقدر له الخليفة العباسى هذا العمل حق قدره [٢] « فأنفذ اليه خلعا وزاد فى رزقه » [٣] .

ويبدو أن تكين ولاه بعد ذلك على الإسكندرية [٤] ، وأنه ظل مقيما بها إلى أن غزا الفاطميون مصر مرة ثانية بقيادة القائم فى سنة ٣٠٧ هـ فأبلى فى قتالهم بلاء حسنا . ولا ريب أنه عمل منذ ذلك الوقت على توثيق علاقته بكبار رجال الحكم فاتصل بأبى بكر محمد بن على الماذرائى وبأبى زنبور الحسين بن أحمد الماذرائى . ويبدو أنه عرف عن كثب الضياع والأموال الطائلة التى جمعها الماذرائيون فأفاد من ذلك فى مصادرة قسط كبير منها بعد أن آلت اليه مقاليد الحكم فى مصر [٥] . كما اتصل محمد بن طغج بالقائد العباسى مؤنس الخادم الذى قدم من العراق سنة ٣٠٨ هـ على رأس جيش عباسى لطرد الفاطميين من الاراضى المصرية .

---

(١) السراه : جبل يصل ما بين أقصى اليمن والشام (أنظر ياقوت : معجم البلدان ، مادة السراه ج ٥ ص ٥٩ — ٦١) .

(٢) نلاحظ أن المؤرخين المسلمين يقبلون على رواية مثل هذه القصص فيما ينسجون حول سير عظماء الرجال فتصبح وكأنها « كليشيهات » لا نعرف نصيبها من الصحة . ومثال ذلك مايروونه عن ابن طولون فى رحلته من طرسوس إلى سامرا إذ يزعمون أنه كان فى قافلة تشتمل على متاع للخليفة المستعين وأن الأعراب سطوا عليها فحاربهم ابن طولون وأنقذ القافلة وحفظ متاع الخليفة فأجازه ووصله بالعطايا .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤

(٤) لا نعرف مؤرخاً أشار إلى ذلك سوى ابن سعيد فى المغرب ص٧ ، نقلا عن ابن زولاق .

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ٨

وتقلد محمد بن طغج حكم الحوفين الشرقى والغربى من قبل تكين . وحدث أثناء ولايته هذه أن استولى على دار القاضى أبى عبيد الله على بن الحسين بن حرب بن عيسى المعروف بابن حربويه والذى قدم إلى مصر سنة ٢٩٣ وعزل عن قضائها سنة ٣١١ فعاد إلى بغداد حيث توفى سنة ٣١٩ هـ .

وتوفى بالاسكندرية سنة ٣١٦ هـ حاكمها أبو اليمن أحمد بن صالح ، ويبدو مما كتبه ابن سعيد أن محمد بن طغج استولى على تركته وأن تكين لم يرض عن ذلك فكان هذا بداية الخلاف بين الرجلين[١] .

وحدث أن عين مؤنس الخادم محمد بن جعفر القرطى على الحسبة ثم على الخراج فى مصر وصرف بذلك الماذرائيين فما لبث هؤلاء أن اتهموه باختلاس الأموال من خراج البلاد فعزله المقتدر وبادر القرطى بالاختفاء عند محمد بن طغج الذى كان صديقاً له منذ قدومه إلى مصر[٢] . وأفلح ابن طغج فى تدبير خطة لاخراج القرطى من مصر وإنقاذه من الوقوع فى يد الماذرائيين الذين كانوا يجدون فى البحث عنه . وحفظ القرطى لابن طغج هذا الصنيع واستطاع أن يحصل له على تقليد من بغداد بولاية الرملة سنة ٣١٦ . والغريب أن محمد بن طغج لم يخرج من مصر إلى عمله الجديد علانية وإنما احتال للهرب منها . وعند ما غادر مقر إقامته بادر الجند بابلاغ تكين أنه هرب . ولسنا نعرف حقيقة الحال فى هذا كله ولا ندرى كيف لا يستطيع موظف عينه الخليفة حاكما على إقليم من أقاليم الخلافة أن يخرج إلى مقر ولايته ، ولكن هذا مثال من أمثلة الفوضى التى كانت تسود البلاد فى ذلك الوقت . ولعل محمد بن طغج خشى أن يغضب تكين ولى نعمته لأنه لم ينل هذا المنصب بوساطته فيعمل على منعه من مغادرة مصر أو يعتقله بأى تهمة من التهم . والراجح أن الرجلين كانت بينهما أمور لا نعرفها على وجه التحقيق وأن ابن طغج كان ينتظر أن ينقلب عليه تكين من حين إلى آخر .

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٨

(٢) أنظر أيضاً Gottschalk : Die Madaraijjun p. 90.

ومهما يكن من الأمر فان ابن طغج عند ما بلغه وحده نبأ تقليده ولاية الرملة طلب إلى محمد بن تكين أن يستأذن له ولنفسه فى أن يخرجا معا للصيد فى إقليم الحوف ثم أفلح ، قبل بداية الصيد ، فى إبعاد محمد بن تكين لاخضاع نفر من قطاع الطرق فى صحراء الحوف ، وبادر بأخذ ثلاثمائة دينار من مبلغ من المال كان قد أودعه عند أمه ثم غادر مصر هاربا إلى الشام سنة ٣١٦هـ ، أما أمه وسائر أفراد أسرته المقيمين بمصر فقد اضطروا إلى الاختفاء[١] .

وقلق تكين لهرب محمد بن طغج وبعث إليه فى دمشق كتاباً يستعطفه فيه ويعتب عليه ومن عبارات هذا الكتاب ، « لو أعلمتنى لأعنتك وعضدتك » ومنها : (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ولبثتَ فينا من عُمُرِكَ سِنين وفَعلتَ فَعلَتك التى فَعَلْت)[٢] . وجاء فى رد ابن طغج على هذا الكتاب « فهمت كتاب الأمير أطال الله بقاه وما تلاه من القرآن والجواب ما أجاب به موسى الذى هو خير من الأمير ومنى (فَفَرَرْتُ منكم لما خِفْتُكم)[٣] .

ولما علم الراشدى أمير الرملة بتقليد محمد بن طغج وبقدومه إليها بادر بالهرب وترك داره وأمتعته فوقعت كلها فى يد ابن طغج .

تسلم ابن طغج من الخليفة المقتدر كتابا يثبته فيه على ولاية الرملة وعوض الراشدى عنها بولاية دمشق . والظاهر أن ابن طغج سعى فى تحسين مركزه وأن صديقه القرطى ساعده فى بغداد فجاءه فى سنة ٣١٩ تقليد من الخليفة بولاية دمشق[٤] ، وصرف عنها الراشدى وردت إليه ولاية الرملة . وكان لابن طغج أصدقاء كثيرون فى دمشق وكان محبوبا عند أهلها فرحبوا بتوليته « ودخلها أحسن دخول »[٥] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٩

(٢) قرآن كريم : سورة الشعراء ، الآيات ١٨ — ١٩

(٣) إشارة إلى ما جاء على لسان موسى فى القرآن الكريم ، سورة الشعراء ، آية ٢١ « ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين » .

(٤) وفى سنة ٣١٨ هـ عند ابن خلكان وأبى الفدا .

(٥) عريب : صلة تاريخ الطبرى (فى الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١٢ ص ٨٢) .

واستطاع ابن طغج الاخشيد أن يوطد لنفسه فى دمشق ، ويلوح أن قائداً من أتباع مؤنس المظفر ، اسمه بشرى الخادم ، انتهز فرصة الفوضى التى كانت تسود بغداد فى ذلك الوقت بسبب الخلاف بين مؤنس والخليفة المقتدر[١] ، فأراد أن يفتح بحد السيف إقليما ينصب نفسه حاكما عليه ويتم شطر دمشق ، ولما قرب منها فاوضه الاخشيد وتم بينهما الصلح واجتمعا . ولكن ما لبث بشرى الخادم أن عقد العزم على القتال والتقى أتباعه بجنود الاخشيد وكان النصر للأخيرين وهزم بشرى وجيء به أسيرا إلى الإخشيد فأقام أياماً ثم أصبح ميتا . وقيل ان الإخشيد سقاه سماً[٢] .

ومهما يكن من الأمر فقد أتيح للاخشيد أن ينظم لنفسه جيشا ضم إليه طائفة كبيرة من الجند الذين كانوا تابعين لتكين وللراشدى ولبشرى الخادم . كما اجتمع حوله اخوته عبيد الله والحسن والحسين وعلى بنو طغج . وولد له بدمشق فى ذى الحجة سنة ٣١٩ هـ ابنه أبو القاسم أونوجور .

والظاهر أن الاخشيد سار منذ بداية حكمه فى دمشق على السنة التى سنعرفها عنه بمصر فى جمع المال بمختلف الطرق والوسائل ، وعلى رأسها مصادرة الأموال عند من يعرف عنهم الثراء والغنى . ومن ذلك ما يروى من أنه خرج يوما للصيد فى ظاهر دمشق فرأى حماما فأطلق إليه طائر الصيد فأمسكه فاذا مع الحمام كتاب من أحد أتباع الراشدى إلى رجل من أهل دمشق يذكر فيه أن مابقى عند هذا الدمشقى ثمانون ألف دينار . ورجع الاخشيد إلى داره واستدعى الرجل وطالبه بالمال وأخذه منه[٣] .

ومن ضروب القصص التى ينسجها الكتاب حول سيرة أعلام الرجال ما يروى من أن الاخشيد كان يجلس فى دمشق ذات يوم فرأى طائرا يقال له السدلى ، وزعم الناس أن من دار هذا الطائر على رأسه ثلاث مرات وتمنى على الله شيئا بلغه ،

---

(١) المرجع نفسه ج ١٢ ص ٧٦ — ٩٤

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٨

(٣) المرجع نفسه ص ١٠

فلما رأى الأخشيد هذا الطائر وقد دوّم على رأسه ثلاث دورات تمنى إمارة مصر فبلغه الله ذلك [١] .

وهكذا نرى أننا لا نعرف شيئا كثيرا عن أسرة الأخشيد ولا عن البيئة التى نشأ فيها ، ولا عن نوع التربية التى تلقاها فى صباه . وحسبنا أنه كان من أولئك الجند الترك الذين حفل بذكرهم تاريخ الدولة العباسية منذ عصر المعتصم والذين استطاع نفر منهم أن يشق لنفسه الطريق وأن يتحكم فى مصير الأقاليم الاسلامية، وأن يظهر إلى أى حد يمكن لحاكم قوى بشخصيته وعبقريته أن يفيد من الجيوش المؤلفة من العناصر المختلفة الجنس وأن يصل إلى السلطان السياسى والحربى فى امبراطورية اسلامية اتسعت أرجاؤها حتى أصبح من العسير على الخلفاء الضعفاء أن يحتفظوا بنفوذهم فيها [٢] .

---

(١) وازن بين هذه القصة (ابن سعيد : المغرب ص ١٠) وقصة الكرة التى كان يقال ان من تقع فى كمه يملك مصر فوقعت فى كم عمرو بن العاص حين زار الاسكندرية فى الجاهلية . أنظر ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها (طبعة تورى) ص ٥٣

(٢) انظر فى سلطان الجند الترك المراجع التى جاء ذكرها فى مقال الدكتور زكى محمد حسن بعنوان «دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الاسلامى» (مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، المجلد ١٢ ، مايو سنة ١٩٥٠ ص ١٨٤ — ١٨٥) .

الباب الثالث

علاقة الأمراء الأخشيديين بالدولة العباسية

obeikandl.com

obeikandl.com

علاقة الأمراء الأخشيديين بالدولة العباسية

(١)

تولية محمد بن طغج الاخشيد

ذكرنا فى الباب الأول أن محمد بن طغج ولى مصر للمرة الأولى نحو ثلاثين يوما وذلك بعد وفاة تكين . والواقع أنه كان يطمع فى حكم مصر قبل وفاة هذا الوالى [١]، ولـكنه انتظر إلى أن خلا مكانه واضطربت الأمور فى مصر فبعث من دمشق بكاتبه على بن كلا إلى الخليفة العباسى يلتمس تعيينه واليـا على مصر . ورفض الخليفة القاهر محتجا بأنه قد ولى عليها محمد بن تكين .

وزعم ابن زولاق أن على بن كلا ، كاتب الاخشيد بادر برشوة كاتب من كتاب القاهر بالله بعد أن خلع هذا الخليفة ، واشترى ابن كلا من هذا الـكاتب بعشرة آلاف درهم تقليدا مزورا على القاهر بولاية مصر للاخشيد ثم أرسل هذا التقليد إلى سيده فى دمشق [٢] . ولـكن هذا الزعم بعيد عن الحقيقة التاريخية لأن خلع الخليفة القاهر حدث فى جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ (ابريل سنة ٩٣٤ م) بينما كانت تولية ابن طغج الأولى على مصر فى شعبان سنة ٣٢١ هـ وورد الـكتاب بولايته عليها فى السابع من شهر رمضان فى السنة نفسها [٣] . والراجح اذن أن الخليفة القاهر عاد ، على الرغم من رفضه الأول ، فعين الاخشيد واليـا على مصر .

---

(١) الـكندى : الولاة والقضاة ص ٥٤٤ وانظر أيضاً المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٨١

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١٠

(٣) الـكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٢ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٨ ، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ و Wüstenfeld : Statthalter IV .p. 22 .

ولكن اضطراب الأمور فى مصر وفى مقر الخلافة نفسه لم يترك للاستقرار سبيلا ، إذ لم يُدع للاخشيد على منابر مصر إلا نحو اثنين وثلاثين يوما ، ورد بعدها كتاب من الخليفة القاهر بولاية احمد بن كيغلغ على البلاد للمرة الثانية . وكان ذلك فى شوال سنة ٣٢١ هـ .

وقامت الفتن بين الجند ثم أقبل محمد بن تكين من فلسطين زاعما أن الخليفة الجديد الراضى بالله محمد بن المقتدر قد ولاه على مصر ، وانقسم الجند طائفتين : طائفة تنصر ابن تكين وطائفة تنصر ابن كيغلغ . وانتهى الأمر بهزيمة ابن تكين فى مكان اسمه الطواحين بين فاقوس وبلبيس ، فأسر ونفى فى أخميم . وكاد الأمر يستقر لابن كيغلغ ، ولكن ما لبث الخليفة العباسى أن قلد محمد بن طغج ولاية مصر للمرة الثانية [1] .

ويذكر ابن زولاق [2] أن الفضل فى تولية محمد بن طغج مصر فى هذه المرة يرجع إلى المصاهرة بينه وبين الفضل بن جعفر . إذ أن الخليفة الراضى ندب الفضل بن جعفر لتفقد أحوال مصر والشام فاشترط الفضل على الخليفة وعلى وزيره محمد بن أبى على بن مقله أن يكون تفويضه كاملا ، وأن يكون الأمر كله اليه «لأن الشاهد يرى مالا يرى الغائب» فأجيب إلى طلبه . وحدث بعد ذلك أن زوج محمد بن طغج ابنته من جعفر بن الفضل ابن جعفر ثم كتب الفضل كتابا بتقليد ابن طغج أمور مصر استنادا إلى شرطه الذى قال فيه إن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب .

وكما أثار ابن زولاق الشك فى صحة التقليد الذى حصل عليه محمد بن طغج فى ولايته الأولى ، فانه يضيف أن التقليد الخليفى الذي ادعاه لنفسه فى ولايته الثانية كان مزوراً أيضاً ، ويروى أن الراضى كان قد قلد محمد بن تكين أمور مصر وأن رسوله حمل التقليد إلى دمشق فأخذه محمد بن طغج ومحا كلمة « تكين » وكتب مكانها « طغج » فحصل بذلك على عهدين . العهد الذى كتبه له الفضل بن جعفر ، والعهد الذى كتبه الخليفة لمحمد بن تكين .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٥ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١١

ويذكر هذا المؤرخ نفسه أن الراضى كتب إلى محمد بن على الماذرائى كتابا يقر فيه احمد بن كيغلغ على ولاية البلاد ويفوض الماذرائى فى أمورها تفويضاً كاملا [١] .

وصفوة القول أن ابن زولاق حرص على أن يفهم القارئ أن تولية ابن طغج فى المرتين لم تكن قانونية أو شرعية . ولكننا لا نجد هذا عند أعلام المؤرخين الآخرين كالكندى ، وابن خلكان ، والمقريزى ، وأبى المحاسن . والراجح أن ذلك الحرص عند ابن زولاق يرجع إلى أنه غير فى نسخة كتابه عن الأخشيد بعد أن اتصل بالفاطميين وشملوه برعايتهم وأن المخطوط الذى وصل الينا من هذا الكتاب صورة لما فيه بعد التعديل [٢] .

ومهما يكن من الأمر فإن الاخشيد أراد بعد تعيينه واليا على مصر المرة الثانية أن يدخلها صلحا فكتب إلى محمد بن على الماذرائى يطلب إليه أن يتركه يدخل مصر بجيشه على أن يظل للماذرائى إشرافه على الإدارة فى البلاد ، ولكن الماذرائى كان يعرف أنه لن يكون له مع الاخشيد ما كان مع سائر الولاة من الأمر والنهى فلم يجب طلبه واضطره إلى ركوب ما كان يكره من جمع الجيوش والاستيلاء على حكم مصر عنوة . ويروون فى هذا الصدد أن الاخشيد كان يدعو على الماذرائى ويقول « هو أحوجنى إلى جمع العساكر وقد كتبت إليه غيرة مرة : دعنى أدخل فى غلمانى ومن معى وأنت المدبر لأمرى وأمرهم ، فما وجدت فيه حيلة ، وأرسل إلىّ : ما بينى وبينك إلا السيف ، قد رد إلىّ السلطان [٣] أمر البلد وجعل إلى تقليد من شئت . فأهلكنى وأهلك نفسه وأحوجنى إلى هذا » [٤] .

---

(١) نص هذا التفويض « أن الأمر يصير إليك فتقلد من شئت وتصرف من شئت » أنظر ابن سعيد : المغرب ص ١١

(٢) أنظر ما كتبناه عن ابن زولاق فى حديثنا عن مراجع هذا الكتاب ص ٤ — ٦

(٣) من النادر أن يشار إلى الخليفة العباسى بلقب السلطان . راجع عن هذا اللقب مقال الأستاذ كرامرز فى مادة « سلطان » من دائرة المعارف الاسلامية وهو مقال طيب على الرغم مما فيه من أخطاء مثل وصف الموفق بالخلافة ، وانظر متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٢٨ ؛ وراجع أيضاً Van Berchem : Corpus Inscriptionum Arabicarum. Egypte I pp. 299, 300, 727.

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ١٨

وعين الفضل بن جعفر أحمد بن نصر عاملا على خراج مصر ، كما قلد بعض أتباعه وظائف أخرى فى إدارتها ، ولكنهم لم يستطيعوا دخولها ، إذ أرسل أحمد بن كيغلغ إلى العريش من يمنعهم من التقدم فلم يجدوا بدا من الرجوع إلى الشام .

ورأى الاخشيد أنه لن يستطيع دخول مصر إلا بالقوة فجمع جنوده وضم إليهم من استطاع ضمهم من القواد والجند الذين وفدوا عليه من أنحاء الشام والعراق والبادية وزاد عدد هذا الجيش حتى كان صعبا على الأخشيد تموينه . وقبل أن يسير الاخشيد على رأس جيشه إلى مصر اجتمع طويلا بالفضل بن جعفر وتشاورا فى الأمور وتدبير الخطط . والظاهر أن الاخشيد كان يشعر بجواسيس الماذرائيين من حوله فأحاط هذا الاجتماع بسياج من الكتمان[1] .

أما فى مصر فقد كان أحمد بن كيغلغ لا يرى بدا من تسليم البلاد للاخشيد ، ولكن الماذرائى أبى عليه ذلك ، فاستعد الجميع للقتال وبعث الماذرائى وابن كيغلغ جيشا إلى حدود مصر الشمالية الشرقية ليمنع ابن طغج من دخول الفرما . وقرأ الماذرائى على أهل مصر كتاب الراضى الذى يفوض إليه تدبير مصر ويقر ابن كيغلغ على ولايتها ثم أوفد الرسل من قبله ، ومعهم صورة هذا الكتاب إلى محمد بن طغج الاخشيد فقابلوه عند وصوله إلى الفرما . ولما قرأ الاخشيد صورة كتاب الراضى طلب من رسل الماذرائى أن يحملوها إلى الوزير الفضل بن جعفر وكان ينزل حينئذ فى مدينة الرملة . ولما وصل الرسل إلى هذه المدينة قبض عليهم الفضل وظلوا فى أسره[2] . وتقدم ابن طغج بجيوشه وخرج أحمد بن كيغلغ على رأس جنده ومعه المغاربة بقيادة زعيمهم حبشى وقيل ان عدد هذه الجيوش بلغ ثلاثين ألف جندى وانها كانت تسد المنطقه الواقعة عند الحدود الشرقية المصرية بين جبال سينا والبحر المتوسط .

وأرسل محمد بن طغج قسما من جيشه فى أسطول بقيادة صاعد بن كلم . وأفلح هذا الأسطول فى الاستيلاء على دمياط وتنيس ثم سارت مراكبه فى النيل ولقيت

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١١ — ١٢

(٢) المرجع نفسه ص ١٢

مراكب الماذرائى وابن كيغلغ بقيادة على بن بدر على مقربة من سمنود . وكان النصر لأسطول ابن طغج فى شعبان سنة ٣٢٣ هـ ووصلت سفنه إلى جزيرة الروضة وأقامت بها أياما ثم انسحبت منها إلى الدلتا فأمر الماذرائى بشحن الجزيرة بالسلاح والرجال استعداداً للدفاع عن الفسطاط . وما لبثت مراكب ابن طغج أن عادت فى العشرين من شهر رمضان وأسرت من فى الجزيرة من رجال واستولت على ما جمع فيها من أسلحة وعتاد ، ولكنها لم تستطع أن تدخل الفسطاط لأن الماذرائى صف جنده ومراكبه للدفاع عنها [١] .

أما ابن طغج نفسه فقد سار على رأس جيشه فى الأرض المصرية والظاهر أن مقدمة هذا الجيش التحمت مع جنود ابن كيغلغ والماذرائى فى معركة خسرها المصريون [٢] . ثم نزل ابن طغج منية الأصبغ [٣] وبعث إلى ابن كيغلغ بكتاب جاء فيه : « هذا كتاب الراضى بتقليدى . فان سلمت وإلا انصرفت بعد أن آخذ خطك وأشهد عليك بمنعك اياى وأسير إلى حضرة السلطان » [٤] . وكان ابن كيغلغ لا يكره التسليم لأن شجاعة ابن طغج وتفوق جيوشه ونجاح خططه وانضمام كثير من المصريين إلى جانبه كل ذلك أرغمه على احترامه والاعتراف بقوته . وفضلا عن ذلك فان ابن كيغلغ كان قد سئم استبداد الماذرائيين بتدبير الأمور فى مصر « وأنه ليس له معهم أمر ولا نهى » . لهذا كله أقبل على تسليم البلاد لابن طغج ، بل اعتذر إليه بأن زمام الحوادث كان قد أفلت من يده وأن جند مصر قاوموه بغير ارادته [٥] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٥ — ٢٨٦ وابن سعيد : المغرب ص ١٢

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٤٤ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩

(٣) شمالى القاهرة وموقعها الحالى قريب من ضاحية الدمرداش . أنظر ابن دقاق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ج ٤ ص ٦٥ وعلى مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ج ١٦ ص ٥٨

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ١٢

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٤٤

وقد جاء فى بعض المراجع التاريخية أن ابن كيغلغ عند تسليمه الى ابن طغج « أخذ بيد الحسين بن محمد الماذرائى فسلمه اليه »[١] . ولسنا نظن أن المقصود بذلك أنه سلمه اليه رهينة وضمانا[٢] ، وانما نرجح أن الحسين الماذرائى أظهر أنه يشاطر ابن كيغلغ رأيه فى التسليم لابن طغج بينما كان أبوه محمد بن على الماذرائى القوة الدافعة فى مقاومة ابن طغج حتى اضطر الى الاختفاء بعد تسليم ابن كيغلغ وظل مختفيا فترة من الزمن . وليس هذا الانقسام غريبا على الماذرائيين ، فقد كانوا يضمنون به وجود أفراد منهم يتعاونون مع مختلف الحكام .

ودخل محمد بن طغج بجيشه مدينة الفسطاط فى الأيام الأخيرة من شهر رمضان سنة ٣٢٣ هـ (أغسطس سنة ٩٣٥ م) وأشرف الجند منها على شاطئ النيل فقدم اليهم زملاؤهم الذين كانوا يقيمون فى الجزيرة بعد الاستيلاء عليها . وطبيعى أن جنود ابن طغج عملوا على نهب الفسطاط . وقيل إنهم ظلوا يفعلون ذلك يومين ثم كفوا عن فعله بعد أن نودى فى المدينة من قبل القائد أن من نهب يقتل[٣] .

ثم بدأت أحوال المدينة فى الهدوء واطمأن السكان الذين كانوا قد طلبوا الأمان من ابن طغج فعادوا الى دورهم بعد أن أمنهم على أنفسهم وأموالهم . ودخل ابن طغج دار الامارة دخول الظافرين .

وغادر الفسطاط حبشى بن أحمد قائد الجند المغاربة فى مصر وعلى بن بدر قائد اسطول ابن كيغلغ وغيرهما من القواد الذين قاوموا ابن طغج . وذلك أنهم كرهوا المقام مع ابن طغج فهربوا الى الشرقية أولا ثم عادوا فيمموا شطر الفيوم[٤] . ولسنا ندرى سبب عدولهم عن الهرب بطريق الحدود الشرقية ، ولكننا نرجح أنهم لم يطمئنوا الى امكان النجاة من أعوان ابن طغج فى هذا الجزء من البلاد ففضلوا الاتجاه الى اقليم الفيوم

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٢

(٢) H. Gottschalk : Die Madaraijjun p. 105.

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١٢

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٦

الذى لم يكن سلطان ابن طغج قد امتد اليه بعد . والمحتمل أنه كانت لهم بهذا الاقليم صلات يمكنهم الافادة منها وأنهم كانوا يريدون الانتفاع بطبيعته الجغرافية فى أى مقاومة يضطرون اليها . والواقع أن محمد بن طغج أراد أن يقضى على حركتهم فى مهدها فأرسل اليهم قائده صاعد بن كلم على رأس جند فى عدة مراكب حربية ولم تستطع هذه المراكب أن تسير فى الترعة الموصلة الى الفيوم وتمكن الاعداء من أسر ابن كلم وقتله والاستيلاء على مراكبه .

وأبحر أولئك الثوار فى المراكب التى وقعت فى يدهم ووصلوا إلى الجزيرة وأحرقوا ما كان فيها من سفن لابن طغج ثم واصلوا السير إلى الاسكندرية حيث لحقوا بجيش وجنوده المغاربة . وعزم الجميع على الذهاب إلى برقة وكتبوا إلى القائم بأمر الله الفاطمى يهونون عليه فتح مصر ويسألونه أن يبعث إليهم جيشاً يتعاونون معه فى الاستيلاء عليها[١] .

وطبيعى أن محمد بن طغج كان يوجس خيفة من شر هؤلاء الخارجين على ولايته ، فأرسل لقتالهم جيشاً بقيادة أخيه عبيد الله بن طغج ولكنهم غادروا الأراضى المصرية إلى رمادة بين الاسكندرية وبرقة . ومرض جيش وتوفى فى رمادة فى صفر سنة ٣٢٤هـ[٢] .

ثم أرسل الفاطميون جيشاً لغزو مصر وأفلح ابن طغج فى صد هذا الجيش كما سنرى فى الباب الذى سنعقده للكلام على السياسة الخارجية .

وهكذا خلصت مصر لابن طغج ، وكان ذلك بجهوده الشخصية ، لأن تقليد الخليفة بالولاية لم يعد يكفى فى ذلك الوقت لتثبيت الوالى بل كان لا بد للوالى من فرض نفسه والتغلب على عدة عقبات . واستطاع ابن طغج أن يتغلب بمهارته السياسية وبقواته البرية والبحرية على الصعاب التى واجهته عند قدومه إلى مصر فانتصر على ابن كيغلغ ومحمد بن على الماذرائى وهزم الثائرين عليه من القواد والجند وصد جيش الفاطميين .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٧ وابن سعيد : المغرب ص ١٣

(٢) كتب ابن سعيد (المغرب ص ١٣) أن جيشاً « مات حسرة على ما خلفه بمصر » ولا ريب أن هذا يشهد بما كان للجند المغاربة وزعيمهم جيش من سلطان قبيل قدوم ابن طغج إلى مصر .

(٢)

تثبيت ابن طغج واتساع سلطانه

يبدو أن الحكومة المركزية فى بغداد كانت ترقب جهود ابن طغج لتثبيت قدمه فى مصر وأن الوزير الفضل بن جعفر كان ينتظر أن تكلل هذه الجهود بالنجاح ليستطيع أن ينتقم من الماذرائيين أعداء أسرته الألداء .

فما كادت الأحوال فى مصر تؤذن بالاستقرار حتى قدم إليها الفضل بن جعفر ومعه خِلَع لمحمد بن طغج من قبل الخليفة الراضى بالله[١] ، ومن المحتمل أن هذه الخلع كانت ترمز إلى تثبيته فى ولاية مصر[٢] .

ولما دخل الفضل بن جعفر مصر استقبله ابن طغج خارج الحاضرة وزينت لهما الفسطاط واشترك أهلها فى استقبالهما والحفاوة بهما اشتراكا شعبياً[٣] . ونزل الاخشيد دار الامارة وسار الفضل بن جعفر إلى دار ابن الجصاص[٤] وعمل هذا الوزير على أن يكشف المكان الذى كان محمد بن على الماذرائى مختفياً فيه . والظاهر أن ابن طغج كان يعرفه[٥] ، ولكنه — لأمر ما — لم يرد أن يكون البادئ بالكشف عنه ، وآثر أن يترك البدء بمثل هذه الأعمال للوزير العراقى نفسه . واستطاع الوزير أن يعرف أن الماذرائى مقيم فى بيت كان يملكه اسحق بن نصير العبادى كاتب خمارويه[٦]

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٧ وابن سعيد : المغرب ص ١٤

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١٤

(٤) هو الحسين بن عبد الله الجوهرى ، كان تاجراً يبيع الجوهر واتصل بأمراء الدولة الطولونية واختاره خمارويه لمرافقة قطر الندى إلى زوجها الخليفة المعتضد ويقال انها أودعت عنده أموالا وجواهر كثيرة ثم ماتت فاستولى على هذه الودائع فلا عجب إذا أصبح من أصحاب الملايين كما نقول اليوم . أنظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦٢ و ٨٠ و ١٨٥ و ٢١٨

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ١٦

(٦) لعله اسحق بن نصير النصرانى أحد كبار المتقبلين الذين ذكرهم أبو المحاسن (النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٥٠) .

فذهب إليه مع ابن طغج ولما تأكد من وجوده عاد الفضل بن جعفر إلى مقره وانتظر ابن طغج إلى أن أتى بالماذرائى وقاده إلى مجلس الوزير . ولا يفوتنا أن نلاحظ هنا سياسة ابن طغج فى التقرب إلى الوزير وإظهار آيات الاجلال له بوصفه صاحب الاشراف العام على أمور مصر وممثل الحكومة المركزية فيها .

وطلب الوزير من الماذرائى مالا لإعداد موكب الحج ، ورد الماذرائى بأنه لا يستطيع أن يقدم إلا خمسة عشر ألف دينار[1] ، فسأله الوزير متهكما هل استطاع بمثل هذا المبلغ أن يعد العدة لقتال ابن طغج ومقاومة تقليد الخليفة بتعيينه . ثم أمر بحبسه . وفكر الاخشيد فى وسيلة جديدة يستطاع بها إرغام الماذرائى على دفع أقصى ما يمكنه دفعه من الأموال بغير أن يتعرض للاساءة منه أو من الوزير نفسه . ولا عجب فقد كان يعرف بخبرته أن الوزارة والولاية لا تدومان وأن الماذرائيين يعودون إلى الارتفاع بعد كل نكبة تحل بهم[2] .

واهتدى الاخشيد إلى شخص كان يظنه عدواً لدوداً للماذرائى لا يقف عند حد فى الانتقام منه . وهو محمد بن تكين الذي كان الماذرائى قد وقف حجر عثرة فى سبيل ولايته كما مر بنا . واستدعى الأخشيد ابن تكين من منفاه فى الصعيد وعرض عليه أن يفوض اليه أمر الماذرائى ينتقم منه ويطالبه بما شاء ، ولكن ابن تكين أبى أن يكون آلة فى يد غيره ففشلت هذه الخطة . وأراد الوزير أن يلجأ إلى الوسيلة المعروفة مع كبار الموظفين فى العصر العباسى ويسمونها المناظرة[3] . وقوامها أن يتولى بعض خصوم الوزراء أو الموظفين المعزولين مساجلتهم بالحجج فى مجلس يعقد لهذا الغرض لاثبات مايوجه اليهم من تهم واختلاسات وارغامهم على أن يدفعوا لبيت المال ما أخذوه

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٥٦ ؛ أما ابن سعيد : المغرب ص ١٤ فقد كتب خمسة آلاف دينار .

(٢) نلاحظ فى هذه المناسبة ما يرويه المقريزى (المرجع نفسه) عن صيام أبى بكر الماذرائى بعد هذه المقابلة وعن امتناع ابن الفرات من الأكل إجلالا له وقوله : « لا آكل أبداً أو يأكل أبو بكر » .

(٣) Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes II p. 685.

obeikandl.com

obeikandl.com

خراج جميع البلاد الإسلامية التابعة للخلافة كما أمر أن يخطب له على المنابر فى أنحاء العالم الاسلامى « وبطلت الدواوين من ذلك الوقت وبطلت الوزارة فلم يكن الوزير ينظر فى شىء من الأمور انما كان ابن رائق وكاتبه ينظران فى الأمور جميعها وكذلك كل من تولى امرة الأمراء بعده ، وصارت الأموال تحمل إلى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون ويطلقون للخليفة ما يريدون »[1] .

وكان اقليم الأهواز حينئذ فى يد أبى عبد الله البريدى يصرف أموره كيف شاء ولا يحمل إلى بغداد من خراجه شيئا . واستفحلت قوة البريدى وامتد سلطانه فرأى ابن رائق أنه لا بد من قتاله واستعان على ذلك بالقائد التركى بجكم الديلمى كما حالف البريدى عماد الدولة ابن بويه فسير الأخير أخاه مع البريدى وهزما بجكم ووطدا سلطانهما فى منطقة الأهواز ، ولكن دب بينهما الشقاق . وقامت المنافسة من ناحية أخرى بين بجكم وابن رائق وتفاوض الأخير مع البريدى ووعده بولاية واسط بعد سقوط بجكم . ولما تم النصر لهذا القائد الأخير أصبح أميرا للأمراء سنة ٣٢٦ هـ (٩٣٨ م) واضطر ابن رائق إلى الانزواء .

وحدث بعد ذلك أن خرج بجكم مع الخليفة لقتال الحمدانيين فظهر ابن رائق فى بغداد ثم وعد بالانسحاب إذا منح ولاية حران والرها وقنسرين مع المناطق العليا لنهر الفرات والحصون الواقعة على الحدود ، فأجيب إلى طلبه وما لبث أن طمح فى سنة ٣٢٨ هـ إلى ملك الشام[2] .

واتسع سلطان ابن رائق فى الأقاليم المتاخمه لولاية الشام فبدأ فى تهديد الاخشيد ومطالبته بمال كأنه جزية على الممتلكات الاخشيدية فى الشام . وقلق ابن طغج أشد القلق من هذه الحالة ثم أشار عليه بعض معاونيه بأن يسترضى ابن رائق بالأموال ليكف شره عنه وذلك استنادا الى ما أمر الله رسوله من أن يعطى المؤلفة قلوبهم

---

(١) ابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٨ ص ١١٢

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣١٣

ويجعل لهم سهما فى الصدقات حتى يكفوا أذاهم . ولما اقتنع الاخشيد بأصالة هذا الرأى أرسل الى ابن رائق الحسن بن طاهر بن يحى العلوى [١] ليعمل على استرضائه [٢] .

ولكن المطالبة بالأموال لم تكن إلا حجة أراد ابن رائق أن يتذرع بها للاستيلاء على الشام من يد الاخشيد . فلما دفع الأخير الأموال المطلوبة لم ير ابن رائق بدا من أن يكشف عن نواياه الحقيقية . وهكذا خرج الى الشام على رأس جيش كبير . ولما بلغ الرقة بعث الاخشيد جيشا بقيادة عمران بن فارس لقتاله [٣] ، ولكن ابن رائق استطاع الاستيلاء على دمشق بعد أن هزم فيها عبيد الله بن طغج [٤] ووالياها بدر بن عبد الله الاخشيدى [٥] ، كما استولى على حمص وحلب وغيرها من المدن والثغور ثم سار حتى دخل مدينة الرملة فى أواخر ذى الحجة سنة ٣٢٧ هـ أو فى أوائل سنة ٣٢٨ هـ .

وكانت العلاقة طيبة فى تلك السنة بين ابن طغج والحكومة المركزية فى بغداد ، ولا سيما منذ وافق الخليفة على منحه لقب إخشيد سنة ٣٢٦ أو سنة ٣٢٧ هـ [٦] ، كما مر بنا فى الصفحات السابقة . وأحس ابن طغج بخطر ابن رائق وعظم الجهود اللازمة لصده ووصل إلى سمعه ما كان يقال من أن الخليفة قلد ابن رائق ولاية الشام فرأى أن يلجأ إلى الخليفة ليستطلع جلية الأمر . وكتب إلى ممثله فى بغداد يطلب إليه أن يرفع إلى الخليفة أخبار ابن رائق ومطامعه فى الشام وأن الاخشيد عمل على استرضائه ولم يفلح وأنه على استعداد للتسليم إليه إذا صح أن الخليفة قد قلده ولاية الشام ، كما أنه أيضا

---

(١) الحسن بن طاهر ، من الأمراء الأشراف من بنى الحسن بن على بن أبى طالب ، رحل من الحجاز إلى الاخشيد فمنحه هذا إقطاعاً واسعاً واتخذه صديقاً ومستشاراً . أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٩٨

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٣٢

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٩

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٢٥

(٥) ابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٨ ص ١٢٨ وابن خلدون : تاريخ العبر ج ٣ ص ٤٠٨ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٧٥

(٦) ابن سعيد : المغرب ص ٢٣ وابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٤

راغب فى قتاله وصده عن الشام ومصر إذا كان الخليفة يأمره (أى ابن طغج) بالقتال. ودخل ممثل الاخشيد فى بغداد على الخليفة ونقل إليه رسالته وكان بين يديه بجكم أمير الأمراء. ولم يجب الخليفة بشىء ولما أمير الأمراء كان لسان حاله حين قال: « من ضرب بالسيف وهزم صاحبه فالعمل له »[١]. وليس الأمر غريبا من الحكومة المركزية، فما نظن أنها كانت تستطيع أن تتخذ قرارا تلزم أحد الفريقين باتباعه، فضلا عن أنها لم تكن لتكره أن تتركهما للقتال فقد يؤدى إلى ضعفهما والتخلص منهما معا. ومهما يكن من الأمر فإن الاخشيد، حين علم بموقف الخليفة وأمير الأمراء ثارت ثائرته وانتابته النوبات العصبية التى كان يتعرض لها بين حين وآخر، وقيل انه عزم على حذف الدعاء للخليفة العباسى فى خطبة الجمعة وأن يُدعى فى مصر للخليفة الفاطمى، ولكن بعض نصحائه صرفوه عن هذه الفكرة وزينوا له أنها لا تفيد إلا خصمه ابن رائق وأنها قد تحمل الخليفة العباسى على تقليده مصر إذا لم يكن قد فعل وعلى الاقبال على مساعدته ضد الاخشيد[٢].

وهكذا لم ير الإخشيد بداً من اعداد العدة لقتال ابن رائق[٣]، كما بعث بأسطوله إلى السواحل الشامية[٤]. ثم استخلف الاخشيد على مصر أخاه الحسن[٥] وخرج على رأس جنده فى بداية سنة ٣٢٨ هـ. وسار حتى نزل مدينة الفرما وتقدمت طلائع محمد بن رائق وكانت بين الفريقين مناوشة ثم سعى فى الصلح بينهما الحسن بن طاهر بن يحيى العلوى. وبعث الاخشيد بكاتبه على بن محمد بن كلا إلى الرملة للمفاوضة فى الشروط. وتم الصلح

---

(١) ابن سعيد: المغرب ص ٢٦

(٢) انفرد ابن سعيد (المغرب ص ٢٦ — ٢٧) بالاشارة إلى هذه الرغبة فى الخروج على الخلافة العباسية والخضوع للفاطميين ولكن سائر المؤرخين المصريين كالكندى والمقريزى وأبى المحاسن لم يذكروا عنها شيئاً. والراجح عندنا أن الاخشيد ربما فكر فى مثل هذا ولكنه لم يتجاوز به حد التفكير بعد أن رأى أن استبدال سيد بسيد لا يغير الحالة ولا يوطد استقلاله. وازن بين رأينا هذا وما كتبه الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن فى « تاريخ الاسلام السياسى » ج ٣ ص ١٥٣ وفى « الفاطميون فى مصر » ص ٩٠ — ٩٢

(٣) الكندى: الولاة والقضاة ص ٢٨٩ وابن سعيد: المغرب ص ٢٥

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢

(٥) ابن سعيد: المغرب ص ٢٥

على أن تكون طبرية وما فى شمالها من الأرض لمحمد بن رائق . وعاد الاخشيد بعد ذلك إلى مصر فى جمادى الأولى سنة ٣٢٨ هـ .

وما لبث ابن رائق أن نكث العهد وسار بجيشه من دمشق فى شعبان من السنة نفسها ووصل إلى الرملة فى طريقه إلى مصر وكتب الاخشيد إليه لعله يصل معه إلى تفاهم يحقن الدماء ، غير أن هذه المحاولات السلمية لم تنجح فخرج الاخشيد على رأس جيشه إلى الرملة والتقى الجيشان عند العريش فى شهر رمضان ووقعت معركة عظيمة انهزم فيها جيش الاخشيد فى البداية . والغريب أن ابن زولاق نص فى هذه المناسبة على أن الاخشيد أعد مراكبه فى البحر ليهرب فيها إلى بلاد المغرب أو بيزنطة إذا حلت الهزيمة بجيشه [١] . ومهما يكن من الأمر فإن هزيمة الاخشيد فى هذه المعركة لم تكن حاسمة ، بل دارت الدائرة وحشد الاخشيد جموعه وأفلح فى مباغتة ابن رائق وانتصر عليه انتصارا كبيرا . فانسحب ابن رائق إلى دمشق وأرسل الاخشيد لمطاردته جيشا بقيادة أخيه أبى نصر الحسين بن طغج ، ولكن ابن رائق باغت هذا الجيش وقتل قائده وأسر بعض مساعديه وسار بهم إلى دمشق . ثم رأى أن يعمل لمصالحة الاخشيد فخلط جثة أخيه القائد القتيل وأرسلها فى تابوت إلى الاخشيد مع ابنه مزاحم بن محمد بن رائق معتذرا عن قتل القائد عارضا أن يفديه بابنه مزاحم . فأكبر الاخشيد هذا العرض وأكرم الابن ورده مكرما إلى أبيه وأفلحت الوساطة فى الصلح بين الفريقين على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية شمالى الرملة وعلى أن يدفع الاخشيد اليه جزية سنوية قدرها مائة واربعون الف دينار [٢] . وكان من مظاهر هذا الصلح أن تصاهر الفريقان فزوج الاخشيد ابنته فاطمة من مزاحم بن محمد بن رائق .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٨

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٩ — ٢٩٠ وابن سعيد : المغرب ص ٢٨ — ٢٩ وابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٨ ص ١٢٨ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩ وابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٤٠٨ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢ — ٢٥٣

وهكذا نرى أن الاخشيد كان عليه أن يفرض نفسه على الولاية التى تقلد حكمها وأن يتغلب على الثوار والمعارضين والغزاة وأن يلجأ الى الوسائل السلمية حين يستطيع وإلى القتال حين لا تنفع الوسائل السلمية. أما الحكومة المركزية فى بغداد فقد سادت فيها الفوضى وكان موقفها من ذلك كله موقف المتفرج ، وذلك حين لا تتدخل من وراء ستار لتزيد الطين بلة وتضيف سببا جديدا للخلاف والقتال بين الولاة الطامعين فى الاستقلال .

ولا ريب فى أن الخلافة العباسية كانت مرغمة على تثبيت الولاة المنتصرين ولا سيما فى مصر [١] . فضلا عن أنها كانت ترتاح الى بقاء هذه البلاد فى يد حاكم قوى يستطيع صد الفاطميين عنها ويحمى الخلافة من شرهم . وقديما كان لمثل هذا الاعتبار أثره فى قيام الأغالبة حين أقطعهم الرشيد افريقية لتكون ولايتهم حاجزا يحمى مصر والشرق الاسلامى من الادارسة وغيرهم من الخارجين على الدولة العباسية [٢] .

وبعد عودة محمد بن طغج من الشام على أثر عقد صلحه الثانى مع ابن رائق ، وردت الأخبار فى شعبان سنة ٣٢٩ هـ بوفاة الخليفة الراضى وبيعة أخيه المتقى بالله ووصل كتاب الخليفة الجديد فى شوال باقرار الاخشيد على مصر [٣] . والواقع أن اعتراف الخليفة كان لا يزال له شأنه عند العامة والخاصة ، إذ أنه بالرغم من ضعف الخليفة فى بغداد إلا أن سيادة الخليفة على الممالك الاسلامية ظلت ماثلة فى الأذهان ولم يفقد معنى الخلافة ما كان له من القوة والسلطان حتى ان بنى أمية فى الأندلس كانوا يقنعون بتسمية أنفسهم « بنى الخلائف » ولم يتخذوا لقب « خليفة » أو « أمير المؤمنين » ثم جاء الفاطميون فكانوا أول من خرج على هذه القاعدة فلم يكتفوا بأن يكونوا أمراء ذوي سلطان دنيوى فقط بل أرادوا أن يكونوا الخلفاء الحقيقيين للنبى عليه الصلاة والسلام فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان فى سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩ م) [٤] .

---

(١) Marcel : Egypte depuis la conquête des Arabes p. 92.

(٢) M. Vonderheyden: La Berberie Orientale sous la Dynastie des Benoûl—Arlab pp. 5-8.

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٠ — ٢٩١

(٤) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٢ — ٣ نقلا عن ابن الجزار المؤرخ المغربى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤م) (وكتاب ابن الجزار موجود فى الجزء الرابع من كتاب العيون والحدائق : مخطوط برلين رقم ٩٤٩١) .

ومهما يكن من الأمر فانه لما بويع المتقى بالخلافة فى ربيع الأول سنة ٣٢٩ كان السلطان فى بغداد لأمير الأمراء بجكم ولم يكن للخليفة ولا لوزير الخليفة شىء . وقد تجدد النزاع بين بجكم والبريدى واستعان بجكم على حربه بقائد من كبار قواده اسمه توزون ، وبعد أن انتصر توزون على البريدى، اغتيل بجكم على يد رجل من الأكراد فى سنة ٣٢٩ هـ .

ثم نشب الخلاف بين الترك والديلم فى بغداد ورجحت كفة الديلم وعين قائدهم كورتكين أميرا للأمراء ولجأ الخليفة الى ابن رائق للتخلص من كورتكين . فخرج ابن رائق من دمشق فى رمضان سنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) وهزم كورتكين ودخل بغداد ومنحه الخليفة لقب أمير الأمراء المرة الثانية . ولكن البريدى احتل اقليم واسط وخرج ابن رائق لقتاله وعقد بينهما صلح على أن يدفع البريدى جزية سنوية نظير حكمه واسط . وسرعان ما تخلى الترك عن ابن رائق وشبت الفتن فى بغداد بسبب القحط والغلاء فأرسل البريدى جيشا الى الحاضرة واضطر الخليفة المتقى وابن رائق الى الخروج الى الموصل حيث كان ناصر الدولة بن حمدان . وكان الخليفة يود أن يعينه ناصر الدولة على البريديين ولكن ناصر الدولة اغتال ابن رائق ليحل محله فى منصب أمير الأمراء . ولم ير الخليفة بدا من منحه هذا اللقب سنة ٣٣٠ هـ ، كما خلع على أخيه ابى الحسن على ولقبه سيف الدولة . وسار ناصر الدولة الى بغداد فهرب منها البريدى وظل ناصر الدولة أميرا للأمراء نحو ثلاثة عشر شهرا ثم قاومه الترك فاضطر الى الرحيل عنها واختار الخليفة القائد توزون أميرا للأمراء فدخل الحاضرة فى رمضان سنة ٣٣١ هـ .

بيد أن العلاقة بين توزون والخليفة ما لبثت أن ساءت إلى حد اضطر معه الخليفة إلى الاستنجاد بالاخشيد والكتابة اليه بأنه سائر للقائه، وخرج الخليفة إلى الرقة مع وزيره ابن مقلة . أما الاخشيد فقد استخلف أخاه أبا المظفر الحسن بن طغج على مصر وسار الى الشام فى شهر رجب سنة ٣٣٢ هـ ووصل الى دمشق ثم سار ومعه أتباعه حتى وافى الخليفة المتقى بالرقة . ولكنه لم يستطع دخولها خوفا من سيف الدولة على بن حمدان [1] .

(١) الذهبى : تاريخ الاسلام ص ٥٩ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٤

والظاهر أن الخليفة المتقى رأى من بنى حمدان الملل والضجر منه فعمل على الصلح مع توزون [١] ، ولكنه كتب فى الوقت نفسه الى الاخشيد يستحثه على أن يعبر نهر الفرات ليلقاه فى الرقة . وخشى الاخشيد أن يحدث له ما حدث لابن رائق حين عبر الفرات وقتله الحمدانيون . فاضطر الخليفة الى عبور الفرات واجتمع بالاخشيد وخلع عليه فى بداية سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) وبالغ الاخشيد فى اظهار امارات الخضوع والاجلال للخليفة، كما قدم اليه والى وزيره وحاشيته الهدايا النفيسة من المال والجواهر والمنسوجات النفيسة والطيب والدواب [٢] . ويبدو أن الخليفة سر باخلاص الاخشيد وهداياه فقال له : « قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لك اونوجور » [٣] فزاد الاخشيد الهدايا الى الخليفة اعترافا بفضله عليه وعلى ابنه .

وهكذا حصل الاخشيد على تقليد جديد من الخليفة بولاية مصر وحق توريث اماراتها لأبنائه من بعده ، وان كان هذا الحق قد حدد بفترة ثلاثين سنة . والواقع أن هذا التقليد من قبل الخليفة لم يكن له شأن عملى كبير وإنما كان إقرارا للواقع وإعطاء لامتياز لم يكن الخليفة ليستطيع أن يمنعه . إذ أن الاخشيد كان قد أخذ البيعة لابنه من كبار القواد قبل لقاء الخليفة ، وذلك أنه عمل فى سنة ٣٣١ على أن يعترف ذوو الرأى فى مصر من أهل البلاد والقواد والجند بابنه اونوجور خليفة له [٤] . ومهما يكن من الأمر فان الاخشيد علم بيأس الخليفة وعزمه على العودة الى توزون عدوه اللدود ، فعرض عليه أن يسير معه الى مصر والشام ليكون الاخشيد ورجاله فى خدمته ، فرفض الخليفة هذه الدعوة . وعاد الاخشيد فطلب من الخليفة أن يقيم فى الرقة على أن يمده بالمال والرجال للدفاع عن سلطان الخلافة فرفض المتقى ذلك أيضا . وقيل

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٤١٨

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٨ ص ٣٤٨ — ٣٥٠

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤٠

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩ وأبو المحاسن : ج ٣ ص ٢٥٤

ان ابن طغج عرض على الوزير ابن مقلة أن يسير الى مصر فرفض الوزير ذلك مراعاة للخليفة [١] .

ولسنا ندرى لماذا استنجد الخليفة بالاخشيد ثم رفض أن يصحبه الى مقر ولايته . والراجح عندنا أن الخليفة كان قد فقد ثقته فى القواد والزعماء وأصبح لا ينتظر أن يكرمه الاخشيد طويلا ففضل ألا يبعد عن حاضرة ملكه وأن يعمل على الصلح مع توزون أمير الأمراء .

ولو أتيح للاخشيد أن ينجح فى جذب الخليفة الى مصر لتغير الى حد ما مستقبل الخلافة ومستقبل وادى النيل . والواقع أن الاخشيد لم يكن أول وال عباسى فكر فى مثل هذا المشروع فاننا نذكر كيف دعا ابن طولون من قبله الخليفة المعتمد الى الالتجاء الى مصر هربا من استبداد أخيه الموفق الذى كان له الأمر والنهى فى شئون الجيش والحكومة، وكاد المعتمد يحقق حلم ابن طولون لولا أن قبض عليه عيون أخيه الموفق وأرجعوه الى حاضرته شبه سجين . وهكذا أخفق ابن طولون والاخشيد فى جعل مصر مركز الخلافة العباسية ولم يتم ذلك إلا على يد الظاهر بيبرس فى القرن السابع الهجرى (١٣م) [٢] .

وروى ابن زولاق فى مناسبة هذا اللقاء بين الخليفة والاخشيد أن الأخير سره ما لقيه من اكرام المتقى وحسن رعايته له وحدثته نفسه أن فى الاستطاعة أن يصحبه إلى بغداد وأن ينال منصب أمير الأمراء فعرض على الخليفة « أن يسير بين يديه ويخدمه إلى بغداد » ولكن أحد أصحاب الاخشيد رأى ما فى هذا المشروع من خطر عليه وعلى امارته فى مصر والشام وخشى عاقبة التنافس بين الاخشيد والترك فى بغداد فأنذر الأمير بما فى المشروع من أخطار ، واقتنع الاخشيد بصواب هذا الرأى فدبر مع

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٢ وابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٤٨ — ١٤٩ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٥ والسيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٥٩ والمكين : تاريخ المسلمين ص ٢١٢ و Wüstenfeld : Statthalter IV. p. 33

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠٩ وما بعدها ، ومحمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس ص ٦٢ — ٧٣ ، وحسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ١٢٦ — ١٣٠ ومحمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك بمصر ص ٧٥ — ٨١ وزكى محمد حسن : مصر والحضارة الاسلامية ص ١٨ — ٢٠ و Arnold : The Caliphate pp. 89-98

صاحبه خطة يبرر بها أمام الخليفة لزوم عودته إلى مصر . ذلك أن صاحبه استدعى رجلا من المغاربة له أخ بالمغرب واستكتبه كتابا إليه من أخيه يقول فيه : « لما اتصل بأمير المؤمنين القائم بأمر الله مسير الاخشيد إلى المتقى بالعراق جهز العساكر فى البر والبحر إلى مصر واغتنم خلوها » ثم « فرك الكتاب ودعكه ليصير كأنه قديم » وحمل الكتاب إلى الاخشيد فطلب أن يكتم أمره عن جنوده لئلا تضعف روحهم المعنوية . وذهب به إلى المتقى وعرض عليه أنه كان يريد البقاء فى خدمته ولكنه يخشى خطر الفاطميين على مصر فلم يتردد المتقى فى حثه على المبادرة بالرجوع إلى مقر ولايته لصد خطر الفواطم عنها[١] .

والغريب فى هذه القصة التى انفرد بروايتها ابن زولاق عن طموح الاخشيد إلى منصب أمير الأمراء أنها لا تتفق مع ما نعرفه عن ابن طغج من بعد النظر وحسن تقدير الأمور . فاننا لا نستطيع إذا سلمنا بصحتها أن نفسر رغبته فى هذا المنصب مع علمه بالدسائس والمنافسات والصعاب التى تحيط به ومع حرصه على ولاية مصر وعلى أن يرثها ابنه من بعده .

ومهما يكن من الأمر فقد عاد الاخشيد الى مصر فى جمادى الأولى سنة ٣٣٣ هـ[٢] وسار المتقى الى بغداد فخرج توزون أمير الأمراء للقائه وكحله فأذهب عينيه ونادى بعبد الله ابن المكتفى خليفة وسمى المستكفى بالله[٣] .

ولما ولى المستكفى الخلافة فى جمادى الآخرة سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) أقر الاخشيد على ولاية مصر والشام وقام الاخشيد بالدعوة له على المنابر فى أنحاء ولايته[٤] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٠ — ٤١

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٢

(٣) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٧٢ — ٧٥ وابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٤٩ وحسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ٥٣

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٢

وقد نقل المستشرق متز عن الجزء الرابع من كتاب « العيون والحدائق فى أخبار الحقائق » [١] أن الخليفة المستكفى كتب الى الاخشيد يعرض عليه امارة بغداد بعد موت توزون ويضمن له القيام بالأمر ولكن الاخشيد رفض هذا المنصب [٢] .

ثم عزل المستكفى وبويع المطيع لله سنة ٣٣٤ هـ وظلت العلاقة بين الخلافة والاخشيد على حالها ، إذ بادر المطيع باقرار الاخشيد على ولايته وأمر الاخشيد بالدعوة للمطيع على المنابر .

والواقع أن علاقة الاخشيد بالحكومة المركزية لم يطرأ عليها أى تغيير منذ عزل المتقى ، فقد شغل الاخشيد بنزاعه مع سيف الدولة الحمدانى على حكم الشام . ووقفت الحكومة المركزية موقف المتفرج فلم يكن لها فى هذا الخلاف رأى تبديه أو ارادة تملبها . ولا عجب فان الاخشيد كان قد احتل الشام بعد قتل ابن رائق ودخل دمشق فى شوال سنة ٣٣٠ هـ واستقر حكمه فى الشام بحد السيف [٣] . فكان نزاعه مع سيف الدولة على حكمها أمرا لا تستطيع الخلافة الضعيفة فى بغداد أن تتدخل فيه ، وسوف نعرض لهذا النزاع عند الكلام على العلاقات الخارجية .

ولا ريب فى أن قتل ابن رائق واستقرار الحكم فى الشام للاخشيد ونجاحه فى تدعيم حكمه فى مصر كل ذلك يعتبر حدا فاصلا فى علاقته بالخلافة فقد ، أصبح من القوة بحيث استطاع فى آخر ذى القعدة سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ م) أن يأخذ البيعة من قواده لابنه أبى القاسم أونوجور من بعده [٤] . وكان ذلك قبل لقاء الخليفة والاخشيد فى الرقة وما أشرنا اليه فى الصفحات السابقة من اعلان الخليفة تقليد الاخشيد حكم مصر ثلاثين سنة

---

(١) مخطوط برلين رقم ٩٤٩١ ورقة ٢٢٧ ب .

(٢) متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٥٢ ، والملاحظ أن الحاشية التى فيها مصدر هذه القصة لم تثبت فى الترجمة العربية لكتاب متز ولكنها موجودة فى النسخة الألمانية (ص ٢٦ حاشية ٧) .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩١ — ٢٩٢ ، وابن سعيد : المغرب ص ٢٩

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩ ، وحسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ١٥٤

والاذن باستخلاف أونوجور . وقد نص ابن زولاق على ما يرجح وجود نظام لولاية العرش وضعه الاخشيد قبل لقاء الخليفة ، فقال : « كان يدعى للمتقى ثم للاخشيد ثم لاونورجور ثم لأبى المظفر الحسن بن طغج »[١] .

وتشهد السكة المضروبة على عهد الاخشيد بتطور العلاقة بينه وبين الخلافة فالدنانير المضروبة باسم الراضى من سنة ٣٢٣ إلى سنة ٣٢٨[٢] ، وبعض الدنانير المضروبة باسم المتقى فى سنة ٣٢٩[٣] تشهد بأن الاخشيد كان لا يزال يدين بالطاعة المطلقة للخليفة العباسى حتى كان اسم الخليفة وحده هو الذى ينقش على السكة . أما منذ سنة ٣٢٩ هـ فان الاخشيد كان ينقش اسمه مع اسم الخليفة على السكة ، كما يظهر من دنانير ضربت سنة ٣٢٩ وسنة ٣٣١ وسنة ٣٣٢ وسنة ٣٣٣[٤] (انظر اللوحة رقم ١) .

أما امتداد سلطان الاخشيد إلى الحجاز واليمن فأمر غير واضح إذ أن الاخشيد أشار إلى أنه حاكم تلك البلاد فى كتابه إلى إمبراطور الدولة البيزنطية سنة ٣٢٥ هـ[٥] كما أن ابن سعيد نقل عن كتاب ابن القرطى فى تاريخ مصر أن محمد بن طغج «ما زالت همته تعلو وسعادته تعينه إلى أن ملك مصر والشام والثغور وخطب له بالحجاز واليمن ولذلك يقول شاعره سعيد بن فاخر المعروف بقاضى البقر فى قصيدة يمدحه بها :

يا ملك الشام ومصرَ إلى أقصى ثغور الروم والشامِ
واليمن الأَبْعد لازلت رفيعا قادراً حامِ[٦]

وذكر ابن ظافر الأزدى المصرى فى تاريخه أن الخليفة المتقى عقد للاخشيد على مصر والشام والحرمين[٧] . كما ذكر أبو المحاسن أن الخليفة جمع لعلى بن الاخشيد

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٠

(٢) S : Lane-Poole : Catalogue of the Collection of Arabic. Coins, Nos 694-699 p. 98.

(٣) Ibid., No. 725 p. 102.

(٤) Lane-Poole : op. cit., Nos. 933. 943 p : 143, H. Lavoix : Catalogue des monnaies musulmanes. Nos. 48-50 pp. 21-23.

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ٢٠

(٦) المرجع نفسه ص ٤٤

(٧) Wüstenfeld : Statthalter IV. pp. 32. 58 & Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages p. 84.

ما كان لأبيه وأخيه من أعمال الديار المصرية والممالك الشامية والثغور والحرمين الشريفين [١] .
وتحدث الكندى عن ملك كافور مصر والحرمين [٢] .

والرأى عندنا أن تقليد الاخشيد الحجاز أو مكة والمدينة وتقليده اليمن أمر صورى ورمزى . فلسنا نعتقد أن سلطان الاخشيد استقر فى تلك الأقاليم ، فقد كان حكمها فى يد أسرات محلية ربما خضع أمراؤها خضوعا اسميا للخلفاء العباسيين أو لمن يقلدهم أولئك الخلفاء حكم تلك البلاد [٣] ، ولكن تصريف الأمور فيها ظل بيد الأمراء أنفسهم [٤] ومنح الخليفة التقليد على الحرمين واليمن لا يقطع بانتقال أى سلطان فعلى الى الوالى صاحب التقليد، ولكنه يشهد ، على كل حال، بضعف الخلافة ونزولها عن قسط من نفوذها السياسى للأقوياء من الولاة . وقد ظلت العلاقة بين مصر والحجاز فى العصور التالية غير واضحة المعالم مما حمل شهاب الدين بن العمرى على أن يكتب عند الكلام على الأعمال فى الدولة المملوكية : « وبهذا تم ذكر النطاق بمصر والشامات وما معها من جميع الممالك الاسلامية إلا الحجاز وهو قطعة من جزيرة العرب وليس أمره بمضبوط ولا بحفظ الثقة منوط » [٥] .

وتقليد الخليفة ولاية الحرمين للاخشيد أمر يشهد بالسلطان الواسع الذى ناله ابن طغج ، لأن هذه الولاية كان لها فى القرن الرابع الهجرى شأن كبير « فقد ظهر من خلال النزاع حول امتلاك مكة والمدينة نظرية جديدة هى أن أمير المؤمنين الحقيقى هو من كان ملكا للحرمين » [٦] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٦
(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٧
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٦٥ — ٢٦٩
(٤) Snouk : Mekka I pp. 57 et suiv. Van Berchem : Corpus, Egypte I. pp. 413-419.
(٥) شهاب الدين بن العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٨٤
(٦) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٥ عن المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٣٦٢

وكان الاخشيد مقصد كثير من عظماء بغـداد [١] . فكان يكرم وفادتهم ويحسن استقبالهم ليكونوا رسل سـلام بينه وبين الخليفة . ولا عجب فان الخلافة كانت لا تزال تحتفظ بقسط وافر من سلطانها الروحى ولم يكن يناهضها إلا الزعماء ذوو النفوذ الشخصى العظيم . وكان القوم يولون وجوههم شطر الخليفة إذا ذهب أولئك الزعماء أو ضعف شأنهم . وحسبنا أن نذكر هنا أن الاخشيد أصيب فترة من الزمن بمرض عصبى كان يعاوده من حين إلى آخر وعمل هو وبعض حاشيته على كتم أمره، ولـكنه كشف وبادر بعض أتباع الاخشيد وغيرهم بالـكتابة إلى العراق يطلبون أن يعهد اليهم بولاية مصر [٢] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٩

(٢) المرجع نفسه ص ١٦ — ١٧

(٣)

خلفاء الاخشيد وعلاقة مصر بالخلافة فى عهدهم

توفى محمد بن طغج الاخشيد بدمشق فى شهر ذى الحجة سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٦ م) وكان قد عقد قبل وفاته لولده أونوجور من بعده . ويقال انه عقد لولديه من بعده : أونوجور وعلى ، وقرر أن تكون الوصاية عليهما لغلامه كافور[١] . والراجح أن أونوجور كان يقيم فى مصر نائبا عن أبيه فى حكمها عندما توفى الاخشيد فى دمشق[٢] .

والملاحظ أن الاخشيد استخلف على مصر قبل سفره ابنه أبا القاسم أونوجور كما استخلف له عمه أبا المظفر الحسن بن طغج[٣] . ويبدو لنا أن الاخشيد كان يثق بأخيه الحسن ويسلم بضرورة التعاون بينهما فى حياته ، ولكنه كان يخشى إذا جعله بعد ولده أونوجور فى ولاية الحكم أن يستأثر بالسلطان وأن ينحى عنه أولاد الاخشيد . ولعل ذلك هو السبب فى أنه رتب أن يدبر أمورهما من بعده غلامه كافور دون عمهما الحسن . وكان كافور — كما سنرى فى الباب القادم — قد ارتقى فى حاشية الإخشيد حتى أصبح مربيا لولديه وموضع الثقة عنده . وكان أونوجور هو الوارث الطبيعى لحكم مصر بعد أبيه ، ولاسيما منذ أصدر الخليفة المتقى سنة ٣٣٣ هـ تصريحه الذى قال فيه للاخشيد : « قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لك أونوجور »[٤] . ومع ذلك كله فان المناداة به فى مصر لم تحدث إلا بعد تردد ومحاولات لتنحيته عن الحكم .

وبيان ذلك أن كافورا شغل بضبط الأمور فى الشام وإقرار الأمن بعد وفاة سيده فوصل نبأ الوفاة قبل قدوم كافور إلى مصر . وركب أبو المظفر الحسن بن طغج إلى دار

---

(١) ابن ظافر الأزدى فى Wüstenfeld : Statthalter IV p. 58.

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٤٢

(٣) المرجع نفسه ص ٤٢ ، ولكن أبا المحاسن يذهب إلى أن أونوجور كان فى دمشق حين مات أبوه . أنظر النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٥ و ٢٩١

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٤٠

الإمارة ، وتبعه اليها الوزير أبو بكر محمد بن على بن مقاتل وخرج اليها أبو القاسم أونوجور وأقبل الناس لتعزيتهما وانصرف الجميع دون أن يقرر شيء فى ولاية العرش . ثم اجتمع أونوجور والحسن بن طغج وعلى بن مقاتل فى اليوم التالى وحضر وجوه الناس من الأمراء والقواد والوزراء والكتاب والأشراف والقضاة والشهود ، وأرسلوا إلى أبى بكر محمد ابن على الماذرائى لاستطلاع رأيه فى الحكم فاعترض الماذرائى على عرض هذا الموضوع على بساط البحث وقال : إن الاخشيد عقد لابنه أونوجور قبل وفاته وان الخليفة المتقى أذن للاخشيد بذلك . ولما اعترض القوم بأن أونوجور لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره رد الماذرائى بأن صغر السن لا يجوز أن يكون سببا فى تنحيته عن الحكم وأن هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ولى حكم مصر وهو أصغر سنا من أونوجور. وأضاف الماذرائى أن اضطراب الأحوال فى الشام ينذر بسوء العاقبة إذا ضيع القوم الوقت فى البحث والاختلاف ، وبذلك تم الأمر لأونوجور وأخفق عمه الحسن بن طغج فى تحقيق مطامعه [1] .

ومما يشهد بأن التنافس كان شديدا على ولاية الحكم بعد وفاة الاخشيد الأبيات التى نظمها أحمد بن طباطبا نقيب الطالبيين فى مصر على ذلك العهد . فقد نقل ابن سعيد عن القرطى أن ابن طباطبا كان « ممن حضر العقد لأبى القاسم أونوجور بن الاخشيد بالفسطاط وأنه قال فى ذلك اليوم وقد طمع فى الأمر أبو المظفر بن طغج وغيره وتشعبت الأهواء :

ماتَ اخشيدُنا فها نحنُ فى ... أمرٍ مريجٍ وكل كفٍّ تُمَدّ
كلكم طالبٌ بجدٍّ وحرص ... إنما الشأنُ أن يُوافق جَدّ
يا ولاةَ الأمورِ ان لم تُنيبوا ... لانتظام فقد تناثر عِقْدُ [2]

وكان طبيعيا أن ينوب الماذرائى عن أونوجور فى تدبير الأمور . والحق أن نفوذه زاد كثيرا بسبب موقفه من تولية أونوجور ، وقد حفظت له والدة الأمير هذا الجميل فأطلقت يده فى أمور الدولة .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٥ والمقريزى : المقفى ص ١٢٤ فى رسالة جوتشلك .

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٥٠

ولسنا نحتاج الى التعليق على هذا الموقف لأن الواضح أن الماذرائى كان يفضل تولية أونوجور ليزيد سلطانه وسلطان الماذرائيين من أفراد أسرته ، ويبدو أن هذا لم يكن أمرا مضمونا اذا آل الحكم الى الحسن بن طغج .

وكتب الماذرائى الى كافور ينهى اليه ماتم من تولية أونوجور وحمد له كافور هذا الحزم فى تصريف الأمور [١] .

وتم ما يشبه الاحتفال بتولية أونوجور حين خرج فى موكب عظيم سار فيه عمه الحسن بن طغج وأبو بكر الماذرائى وقصد الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) فأدى صلاة الجمعة فى ١٣ من المحرم سنة ٣٣٥ ودعى له على المنابر .

وما لبث كافور أن عاد الى مصر على رأس الجيش الذى كان قد سافر الى الشام مع الاخشيد . وكان وصوله الى الفسطاط فى شهر صفر سنة ٣٣٥ هـ . وورد كتاب من الخليفة المطيع لله الى الأمير أبى القاسم أونوجور يقره فيه على ولاية مصر والشام وما كان لأبيه من الولاية [٢] . وقرئ هذا الكتاب يوم الجمعة أول ربيع الآخر على منبر الجامع العتيق [٣] .

وقد ذكر أبو المحاسن أن كافورا خرج من مصر بابنى الاخشيد وتوجه بهما الى الخليفة المطيع لله وأصلح أمرهما معه والتزم كافور للخليفة بأمر الديار المصرية ثم عاد بهما الى مصر [٤] . ولكننا لم نجد فى سائر المراجع القديمة ما يؤيد سفر الأميرين مع كافور للقاء الخليفة .

ثم أصبحت مقاليد الأمور فى بغداد بيد بنى بويه وأضحى معز الدولة صاحب الأمر والنهى فى الدولة العباسية . فلا عجب اذا سعى اليه الولاة والأمراء ومنهم أونوجور ابن الاخشيد . وقد كتب أبو المحاسن أن أونوجور أرسل طائفة من الهدايا الى معز

---

(١) المقريزى : المقفى ص ١٢٤ فى رسالة جوتشلك .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٩١
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٤
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١ — ٢

الدولة سنة ٣٣٨ وسأله أن يكون أخوه مشاركا له فى إمرة مصر وأن يخلفه بعد وفاته فأجابه معز الدولة الى ذلك [١] . وهكذا نال أونوجور موافقة الحكومة المركزية على استخلاف أخيه . ولكن الذى يبدو غريبا فى طلب أونوجور هو أن يكون أخوه مشاركا له فى إمرة مصر . فلسنا نفهم المقصود بذلك — هل يراد بالمشاركة أن يتولى على بعد وفاة أونوجور أو كان أونوجور يريد أن يشاركه أخوه فى القبض على أزمة الأمور فى مصرحتى يمكنه التخلص من وصاية كافور . ولكن التفسير الأول هو الراجح عندنا .

أما سلطان مصر على الحجاز بعد وفاة الأخشيد فقد ظل سلطانا إسمياً يقف عند ذكر اسم الأمير الاخشيدى فى الخطبة في بعض السنين ولا يكاد يصل إلى ذلك فى سنين أخرى . وحسبنا ما ذكره القلقشندى [٢] عن إخفاق المحاولة التى قام بها أمير الركب المصرى للخطبة لابن الاخشيد على المنابر فى مكة سنة ٣٤٢

بل نستطيع أن نذهب أبعد من ذلك لنستنبط أن اقرار معز الدولة ولاية ابن الاخشيد سنة ٣٣٨ لم تكن عن طيب خاطر ، ولكنه كان مضطرا إلى قبول ما لا يستطيع رفضه أو تغييره لبعد الشقة بين العراق ومصر ولاشتغاله بتذليل العقبات التى كانت تعترضه لتوطيد سلطانه والقضاء على البقية الباقية من سلطان الخليفة . ولما استتب الأمر ظهر فتور فى العلاقة بينه وبين الدولة الاخشيدية . وظهر هذا الفتور فى حرصه على حذف اسم الأمير الاخشيدى من الخطبة على منابر الحجاز . وقد أشار ابن الأثير إلى ذلك حين ذكر فى حوادث سنة ٣٤٢ هـ أن قتالا وقع بين أتباع معز الدولة وعساكر المصريين من أصحاب ابن طغج وكان الظفر لأنصار معز الدولة فخطب له بمكة [٣] . ولكن قضية الاخشيد لم تكن خاسرة فى الحجاز كل هذه السنين فكان يدعى للأمير الاخشيدى بعد الخليفة أحيانا ، كما كان يدعى له بعد معز الدولة وأفراد أسرته أحيانا

---

(١) المرجع نفسه ج ٣ ص ٢٩٨

(٢) صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٦٨

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٢

أخرى . من ذلك ما أشار إليه ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٤٣ حين ذكر أن حربا وقعت بمكة بين أصحاب معز الدولة وأصحاب ابن طغج من المصريين وأن الغلبة كانت لأصحاب معز الدولة فخطب بمكة والحجاز لركن الدولة ومعز الدولة وولده عز الدولة بختيار وبعدهم لابن طغج[١] .

واستطاع كافور طوال حكم أونوجور أن يكون الحاكم الحقيقى للبلاد كما سنرى فى الباب القادم . ولما توفى أونوجور فى ذى القعدة سنة ٣٤٩هـ (ديسمبر سنة ٩٦٠م) نودى بأخيه على بن الاخشيد أميراً على مصر وذلك باتفاق كافور وقواد الجند ورجال أبيه الاخشيد[٢] ، وكان يبلغ من العمر حينذاك ثلاثا وعشرين سنة[٣] ، وقد أقره الخليفة المطيع على ولاية مصر والشام والحرمين .

وسوف نرى أن الأمور كانت على عهده بيد كافور كما كانت الحال فى عهد أخيه ، والظاهر أن كافوراً كان المسئول عن إدارة البلاد وضمان خراجها أمام الحكومة المركزية[٤] .

ثم توفى على بن الاخشيد فى المحرم سنة ٣٥٥هـ وظلت مصر بعد وفاته أياما بغير أمير فلم يذكر فى الخطبة إلا اسم الخليفة المطيع . وكان كافور يدبر أمور مصر والشام . وما لبث — بعد نحو أسبوعين من وفاة على بن الاخشيد — أن أعلن ورود كتاب من الخليفة المطيع بتقليده مصر ، فدعى له على المنابر[٥] . وقد يمكن الشك فى أن الكتاب الذى أقره فيه الخليفة على ولاية مصر والشام والثغور والحرمين وصل الى مصر فى الوقت الذى أعلن فيه خبر وصوله ، أى بعد وفاة على بن الاخشيد بأسبوعين ، ولاسيما اذا تذكرنا أن تقليد الخليفة لأونوجور وصل الى مصر بعد وفاة الاخشيد بنحو ثلاثة أشهر ، ولكن الذى لا شك فيه أن الخليفة ان لم يكن قد عقد له على ولاية مصر فقد سكت على اغتصابه

(١) المرجع نفسه ج ٨ ص ١٨٤
(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٤٦ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٦
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٦ وابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٥ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩ وأبو المحاسن ج ٣ ص ٣٢٥ — ٣٢٦
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١
(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣٠ وج ٢ ص ٢٧

الحكم ، وهكذا يتبين أن الخلافة لم يكن لها الرأى الأعلى فى حكم مصر حينذاك بل كانت لا تملك إلا اقرار الأمر الواقع .

ولم يكن كافور صاحب حق شرعى فى ولاية مصر . فإنه ليس من أسرة الاخشيد ، ومع ذلك فان الخلافة لم تحتج على اغتصابه الحكم ، ولاسيما أنها اعتادت أن ترى فى يده تدبير الأمور فى مصر . ولا ريب فى أن « التكييف القانونى » لهذه الفترة التى استقل فيها كافور بحكم مصر ، مسألة تستحق النظر . وإذا استعرضنا أقوال أعلام المؤرخين فى هذا الصدد تبين لنا أن ولايته الشرعية أمر غير مقطوع به :

أما الكندي وهو أقدم المراجع التى عاصرت الدولة الأخشيدية إلى نهايتها فانه لم يصل فى كتابه الولاة إلى وفاة على بن الاخشيد . وان تكن المخطوطة التى طبع منها الأستاذ جست كتاب الولاة قد جاء فيها الكلام على أونوجور وعلى بن الأخشيد وكافور وأحمد بن على الاخشيد فان هذا الكلام تسبقه عبارة فى الهامش قبل الكلام على أونوجور ، ونصها « إلى هنا انتهى ما كتبه أبو عمر (الكندى) واخترمته المنية قبل إكماله . قال ذلك ابن زولاق فى أول كتابه أخبار قضاة مصر . وما بعد ذلك ليس من كلام أبى عمر »[1] .

والمرجع الثانى المعاصر لنهاية الاخشيديين هو ابن زولاق . والمعروف أنه كتب ذيلا لكتاب الولاة للكندى . ولكن هذا الذيل ليس هو التذييل المضاف إلى المخطوطة التى طبعها جست . ويرجح الأستاذ جست نفسه هذا الرأى[2] .

ونحن نجزم بصحته ونضيف إلى القرائن التى ذكرها جست أن المقريزى[3] نقل عبارة طويلة عن ابن زولاق من كتاب « تتمة كتاب أمراء مصر للكندى » وأن هذه العبارة ليست فى التذييل المضاف إلى المخطوطة التى طبعها جست . ومهما يكن من الأمر فان هذا التذييل الذى لا نعرف تاريخه تماما لم يشر صراحة إلى تولية كافور ،

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٣ ، ابن سعيد : المغرب ص ٥

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ، المقدمة الانجليزية للاستاذ جست ص ١٢ و ٤٦

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٥ ، الأسطر ١٦ — ١٩

وإنما جاء فيه « واستبد كافور بالأمر بعد موت على بن الاخشيد ودعى باسمه على المنابر فى المحرم سنة ٣٥٥ ووردت رسل المطيع وخلعه وهداياه »[١] .

وكتب ابن زولاق سيرة الاخشيد ونقلها ابن سعيد فى كتابه العيون الدعج فى حلى دولة بنى طغج (الجزء الرابع من كتاب المغرب) . ولم تعرض هذه السيرة لما بعد تولية أونوجور .

أما ما جاء فى كتاب ابن سعيد عن حكم كافور فقد نقله عن القرطى الذى كتب فى عهد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين . ونص ما جاء فى هذا الكتاب عن الفترة التى نحن بصددها « قال القرطى لما مات على بن الاخشيد كان ابنه أحمد صغيراً فاستبد بالسلطان كافور الخادم ولم يظهر لأحمد رسم ولا اسم إلى أن مات كافور سنة ٣٥٧ فأظهر عقد الأمر لأحمد بن على بن الاخشيد »[٢] وليس فى ذلك أى إشارة إلى تقليد من الخليفة .

أما جمال الدين بن ظافر الأزدى المتوفى سنة ٦٢٣ هـ فقد كتب عن الدولة الاخشيدية النبذة التى نقلها وستنفلد فى كتابه الألمانى عن ولاة مصر .

ومما جاء فى هذه النبذة قصة استيلاء كافور على السلطان بعد وفاة على بن الاخشيد وقد نقلها ابن ظافر عن الفرغانى المؤرخ الذى عاصر الاخشيديين ولم تصل إلينا كتبه . قال ابن ظافر « ولما توفى على بن الاخشيد استشار كافور فيما يصنع . قال الفرغانى المؤرخ : لما توفى على استدعانى كافور وقال لى : ان لك علينا حرمة وبيننا معرفة وأنت مسكون إلى نصيحتك ومشهور عندنا بصحة عقيدتك فما ترى أن أصنع فقلت له : أيها الأستاذ ان المرحوم عندك صنائع وأياد تقتضى أن تنظر لعقبه والرأى عندى أن تنصب أحمد بن الأمير على مكان أبيه وتدبر أنت الدولة كما كنت فقال : كيف يمكننى نصب صغير ؟ فقلت : قد كان المرحوم عقد العهد لولده على ولم يكن له من السن ما لأحمد .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٧

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٤٦

فقال لى : تنظر فى ذلك . وانصرفت عنه فبلغنى أنه قال بعدى : أبو محمد ممن لا يشك فى ولائه ولكنه يميل إلى الفرغانية . ثم لم يقبل ما أشار إليه الفرغانى بل وثب على الرياسة وانتزى وانتمى إليها واعتدى وأنزل اسم مواليه عن المنابر وأقام كذلك إلى أن توفى يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٧ »[١] وليس فى هذا النص أى إشارة إلى تقليد من الخليفة .

والمقريزى أول المؤرخين المصريين الذين يشيرون إلى تقليد الخليفة ، غير أنه يفعل ذلك فى صيغة غريبة فيقول ان كافورا « أخرج كتابا من الخليفة المطيع بتقليده بعد على بن الاخشيد[٢] »

أما أبو المحاسن فقد لخص الأمر بقوله : « ثم مات على أيضا سنة ٣٥٥ واستقل كافور بالأمر وخطب له »[٣] . وكتب السيوطى « فمات أونوجور وقام بعده أخوه على فاستمر إلى أن مات سنة خمس وخمسين فاستقرت المملكة باسم كافور يدعى له على المنابر بالبلاد المصرية والشامية والحجاز »[٤] .

ومن الطريف أن من بين المؤرخين المصريين من لا يحفل بولاية أونوجور وأخيه على ومنهم ابن أياس فانه يقول : « ولما مات الأمير أبو بكر تولى من بعده خادمه أبو المسك كافور الاخشيدى »[٥] .

أما مؤرخو الخلافة عامة فعلى رأسهم ابن الأثير . وقد أشار فى حوادث سنة ٣٤٩ إلى مصر فقال : « وفيها فى آخرها مات أنوجور بن الاخشيد صاحب مصر وتقلد أخوه على مكانه »[٦] . ولكنه لم يشر بعد ذلك إلى موت على وتولية كافور وإن يكن قد سمى كافورا « صاحب مصر » عندما تحدث عن الغزو الفاطمى . وقد نسج على منوال ابن الأثير سائر المؤرخين الذين كتبوا فى تاريخ الخلافة عامة .

---

(١) جمال الدين بن ظافر الأزدى فى Wüstenfeld : Die Statthalter p. 59.
(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢
(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢
(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٤٣
(٦) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٩٢

وكتب ابن خلكان [١] : « إلى أن توفى على . . . ثم استقل كافور بالمملكة من هذا التاريخ وأشير عليه باقامة الدعوة لولد أبى الحسن على بن الاخشيد فاحتج بصغر سنه وركب بالمطارد [٢] وأظهر خلعا جاءته من العراق وكتابا بتكنيته » .

وأشار أبو الفدا [٣] إلى موت على بن الاخشيد وتولية كافور بقوله : « فتوفى على بن الاخشيد المذكور وهو صغير فى سنة ٣٥٥ فاستقل كافور بالمملكة من هذا التاريخ ».

وهكذا يبدو لنا أن كافورا لم يسمح بذكر اسم أحمد بن على بن الاخشيد فى الخطبة وأنه استقل بمصر ولكنه كان يشعر بأنه غريب عن أسرة الاخشيد . ولعله كان يشعر بما نكاد نصل إليه من النصوص وهو أنه وسط بين الأمير والوصى على العرش . فهو مستقل بحكم البلاد ، ولكنه غريب عن شعبها وأسرتها الحاكمة . وهو مطلق التصرف فى أمورها ، ولكن ذلك ليس جديدا عليه فقد كان له هذا السلطان منذ وفاة الاخشيد . وهو أمير على البلاد ، ولكنه يؤثر الاحتفاظ بلقب « الاستاذ » حتى لا يصدم أهل الرأى فى البلد باغتصاب الألقاب إلى جانب اغتصابه السلطان . وليس ببعيد أنه كان لا يعترض على ذكر اسم احمد بن على بن الاخشيد ، متى بلغ سن الرشد وطالب بعرش أبيه وجده .

وبعد وفاة كافور سنة ٣٥٧ هـ اجتمع كبار القواد والموظفين وأولو الأمر فى مصر وعقدوا الولاية لأحمد بن على الأخشيد وكان صبيا فى الحادية عشرة من عمره [٤] ولم يخرج على هذا الاجماع سوى الحسن بن عبيد الله بن طغج الذى أخذ البيعة لنفسه واستولى على ما كان لكافور من أموال فى الرملة [٥] .

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٥

(٢) المطارد جمع مطرد . وهى ضرب من الأعلام والبنود . أنظر Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes II. p. 34.

(٣) المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١١٣

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٩

(٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٧

ودعى لاحمد بن على الاخشيد على منابر مصر والشام والحرمين ثم من بعده للحسن ابن عبيد الله بن طغج إما بوصفه وصيا عليه أو بوصفه خليفة له [١] . ثم قدم الحسن بن عبيد الله منهزما من القرامطة فى الشام وتولى بنفسه تدبير الأمور فى مصر نحو ثلاثة أشهر .

ولسنا نعرف تماما هل جاء من الخليفة تقليد لأحمد بن على الاخشيد على ولاية مصر والشام والحرمين أو سبق الغزو الفاطمى ورود هذا الاعتراف من الحكومة المركزية أو النظر فيه . فالواقع أن المراجع التاريخية لا تشير الى هذا الاعتراف بشىء . ومهما يكن من الأمر فان دخول جوهر الصقلى مصر فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ وضع حداً لسلطان الدولة الاخشيدية ولسلطان الخلافة على مصر .

(١) أبو المحاسن ، المرجع السابق والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣٠

(٤)

العلاقة المالية بين مصر والخلافة فى العصر الاخشيدى

كانت الحكومة المركزية فى بغداد تتبع فى ضرائب مصر والشام على عهد الاخشيديين نظام التضمين أو الالتزام . ولم يكن هذا النظام جديدا على مصر الاسلامية ، فقد عرفته منذ بداية العصر العباسى حين « بعث أبو جعفر (المنصور) الى نوفل بن الفرات [١] أن اعرض على محمد بن الأشعث ضمان خراج مصر ، فان ضمنه فأشهد عليه وإن أبى فاعمل على الخراج . فعرض عليه ذلك فأبى » [٢] وإذا كان ابن الأشعث قد رفض أن يلتزم بدفع مبلغ معين على خراج مصر كله فما ذلك إلا لخشيته أن يعجز عن الوفاء بهذا المبلغ لاضطراب الحالة الاقتصادية فى البلاد وصعوبة جمع الضرائب فيها وحاجة الوالى إلى كثير من المال للانفاق على الادارة والجند [٣] .

وكان الولاة العباسيون فى مصر أو عمال الخراج فيها يتعهدون كتابة بدفع مبالغ معينة الى بيت مال الخلافة العباسية ولكنهم كانوا فى كثير من الأحيان لا يدفعون كل ما تعهدوا بدفعه وذلك بحجة الانفاق على الجند الذين كانت الحكومة المركزية ترسلهم الى مصر لقمع الثورات واقرار الأمن [٤] .

وكان الماذرائيون فى عصر الولاة العباسيين بين الدولتين الطولونية والاخشيدية يلتزمون خراج مصر والشام . ويبدو أنهم كانوا يدفعون سنويا مبالغ تختلف بحسب

---

(١) لما عزل موسى بن كعب عن ولاية مصر ، صلاتها وخراجها ، استخلف على الخراج نوفل بن الفرات هذا . ثم قدم إلى مصر سنة ١٤١ هـ الوالى الجديد محمد بن الأشعث على الصلاة والخراج أيضا ولكن الخليفة المنصور رأى أن يعفيه من ولاية الخراج إذا لم يقبل ضمانه .

(٢) الولاة والقضاة ص ١٠٩ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٠٦ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٤٦

(٣) وازن Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 243-244.

(٤) المرجع نفسه ص ٢٤٤

السنين وتتراوح بين مليون وسبعمائة ألف دينار بعد النفقة على الجيش وما تحتاجه الإدارة [١] .

والمعروف أن الخلافة العباسية كان لها بيت المال العام وبيت مال الخاصة وأن الأول كانت تؤخذ منه العطايا ونفقات دار الخلافة [٢] ، أما الثانى فكان الخليفة ينفق منه على موسم الحج وعلى الغزوات إلى حدود الدولة البيزنطية وعلى فداء أسرى المسلمين وعلى القيام بنفقات الرسل الواردين [٣] . وكانت الضرائب التى تجمع من مصر والشام يسير بعضها إلى بيت المال العام ، كأموال الخراج العام ، كما كان بعضها الآخر يؤول إلى بيت مال الخاصة كجزية أهل الذمة [٤] .

وظهر على مسرح السياسة العباسية فى مصر قبيل قيام الأخشيد عامل جديد ، هو الفضل بن جعفر بن الفرات . وكان الفضل وزيراً للمقتدر ثم اختفى بعد مقتل هذا الخليفة . ولكنه عاد إلى السياسة وآثر البعد عن الخلافة فى وظيفة يستطيع أن يظهر فيها مهارته واستقلاله ، فكلف سنة ٣٢٢هـ (٩٣٤م) بالتفتيش على مصر والشام وجباية ضرائبها . وظل يقوم بذلك حتى توفى واستطاع التوفيق بين سلطان الخلافة وميول الاخشيد إلى الاستقلال . وكان له مطلق التصرف ولا سيما فيما يتعلق بجباية الضرائب فى مصر [٥] .

وقد مر بنا أن قسطا كبيرا من الفضل فى تولية ابن طغج لمصر يرجع إلى الفضل ابن الفرات هذا ، وعرفنا أنه قدم إلى مصر سنة ٣٢٤هـ (٩٣٦م) يحمل إلى محمد بن طغج تقليد الولاية من الخليفة الراضى [٦] .

---

(١) هلال الصابئ : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٢٩٠ ومسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ١٠٦ — ١٠٨ وج ٥ ص ١١٤ — ١١٦

(٢) هلال الصابئ : المرجع السابق ص ١٠ ومايليها

(٣) المرجع نفسه ص ٢٢

(٤) متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٢٠٤ نقلا عن ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الأمم ص ١٩٦ ب (وهو مخطوط بالمكتبة الأهلية ببرلين) .

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ١١ و ص ١٥ — ١٨ و ١٦٢ — ١٦٤

(٦) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٧ — ٢٨٨ ، ابن سعيد : المغرب ص ٣٤ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩

وفى هذه السنة كتب الاخشيد إلى الخليفة الراضى يخبره بما ادخره من المال هو والفضل بن جعفر فجاء رسول الراضى إلى مصر بالخلع والطوق والسوارين[١] . ونحن نعلم أن الاخشيد كان قد زوج ابنته لجعفر بن الفضل ، ويظهر أن العلاقة الوطيدة استمرت بين الرجلين ويشهد بذلك ما ذكره ابن زولاق[٢] من أن محمد بن طغج كان يخرج بنفسه على رأس علية القوم فى مصر لوداع هذا الوزير إذا ما غادر البلاد أو لاستقباله اذا ماعاد إليها .

وفى بداية سنة ٣٢٦ هـ أرسل الخليفة الراضى إلى الفضل بن جعفر يستدعيه لتولى مهام الوزارة فى بغداد وسار ابن طغج لتوديعه هو ووجوه أهل مصر . ولم يكد الفضل يصل إلى الرقة حتى لقيته خلع الوزارة ودخل بغداد وأخذ يعمل على تدبير الأمور فيها . ولكن التوفيق لم يكن حليفه فى هذا العمل الذى كانت تحف به الدسائس فاستأذن الخليفة فى العودة إلى مصر والشام للاشراف على مواردها كما كان من قبل . وأذن له الخليفة بذلك ، فسار الفضل إلى مصر ولكن المنية عاجلته فتوفى بالرملة فى ٨ من جمادى الأولى سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٩ م)[٣] .

ومما يؤسف له أشد الأسف أن المراجع التاريخية لم تذكر شيئا عن المال الذى كانت مصر ترسله إلى الحكومة المركزية فى العراق طوال العصر الاخشيدى . والراجح عندنا أن هذا المال لم يكن معينا ولم يرسل بانتظام وإنما كان قدره وموعد ارساله يتوقفان على الحالة الاقتصادية والحربية فى مصر .

وقد ذكر ابن سعيد والمقريزى أن خراج مصر بلغ فى أيام الاخشيد ألفى ألف دينار فضلا عن ايراد ضياعه الخاصة[٤] . ونقل ابن اياس عن ابن وصيف شاه أن خراج مصر أيام هذا الأمير بلغ ألف ألف دينار[٥] . ووصلت الينا بيانات أخرى عن مالية البلاد

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٧

(٢) المرجع نفسه ص ١٦ و ١٨

(٣) المرجع نفسه ص ٢٤ ، ومما يستحق الذكر أن فى دار الآثار العربية بالقاهرة وفى متحف بناكى بأثينا وفى مجموعة تانو بالقاهرة قطع نسيج باسم هذا الوزير ، راجع Combe. Sauvaget et Wiet : Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. IV. pp. 46-48 .

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٣٦ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٩

(٥) ابن إياس : نشق الأزهار فى عجائب الأمصار ص ٣٧

فى العصر الاخشيدى . ولكننا لا نعرف النسبة التى كانت تدفع إلى بيت مال الخلافة من هذا الخراج .

بيد أننا نعرف وجوها أخرى كان الاخشيديون ينفقون فيها الأموال مشاركة للحكومة المركزية وتعاونا معها أو ابتغاء مرضاة رجالها . ومن ذلك أن الاخشيديين اشتركوا مع الحكومة المركزية فى دفع النفقات اللازمة لفداء الأسرى المسلمين ، وأول فداء اشترك فيه محمد بن طغج كان سنة ٣٢٦هـ وقام به ابن ورقاء الشيبانى من قبل الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات المشرف على شئون مصر المالية فى ذلك الوقت . واشترك فى هذا الفداء بشرى الثملى أمير الثغور الشامية . ويقال ان عدد المسلمين الذين شملهم هذا الفداء ستة آلاف .

وبدأ محمد بن طغج فداءً آخر تم فى سنة ٣٣٥ هـ [١] ، ولكنه مرض وتوفى قبل إتمامه فدفع كافور الاخشيدى ثلاثين ألف دينار من مال الفداء إلى رسول ملك الروم ومعه أمير الثغور ثم كاتب الأخير سيف الدولة بن حمدان ليأخذ على عاتقه اتمام هذا الفداء ففعل [٢] .

وحدث فداء ثالث فى عصر الدولة الاخشيدية اشترك فيه أبو بكر محمد بن على الماذرائى وأشار المقريزى إلى ذلك بقوله : « وخرج (الماذرائى) فى سنة ٣٤٣ إلى ثغر الاسكندرية بسبب الفداء فى جمع كبير ومعه من الذهب والورق والثياب والطيب والأطعمة ما يجل وصفه وخرج معه عدة من الاشراف والعلماء والوجوه . وكان ينادى بالمسلم ويحضره اليه ويسأله عن بلده ثم يكسوه ويطعمه بمفرده ويطيبه ويدفع إليه نفقة ثم يودعه وينصرف ، فلم يزل على هذا حتى فرغ الفدا فكان فداءً مذكورا لم يقع بعده فداء مثله [٣] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٨ و ٢٣ والكندى : الولاة والقضاة ص ٥٦٨

(٢) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٦٣ — ١٦٥ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٩٢

(٣) المقريزى : المقفى ص ١٢٦ — ١٢٧ (فى رسالة جوتشلك عن الماذرائيين) .

وكان للأمراء الاخشيديين ممثلون فى بغداد يسهرون على شئونهم ويراقبون مايجرى فى دار الخلافة ويعملون على أن يستميلوا إلى الاخشيديين من يستطيعون التأثير عليه بمختلف الوسائل من أولى الأمر . فكان أبو الحسين بن العجمى يمثل محمد بن طغج فى بغداد وينوب عنه . ومن مظاهر نشاطه أن الوزير العباسى أبا على محمد بن مقله احتاج بعد صرفه عن الوزارة إلى بعض المال فكلم أبا الحسين بن العجمى كي ينقل ذلك إلى الاخشيد ، وأعطاه أبو الحسين ألف دينار كانت معه وكتب إلى الاخشيد يخبره بحاجة ابن مقلة فأرسل الاخشيد ثلاثين ألف دينار أخذ منها ابن مقلة ثمانية وعشرين ألفا وترك ألفين لأبى الحسين بن العجمى نائب الاخشيد ، وبعث ابن مقلة بكتاب شكر إلى الاخشيد [١] .

وطبيعى جدا أن يكون للاخشيد وكيل فى بغداد ، وقد سبقه إلى ذلك أحمد بن طولون فكان له وكلاء فى سامرا وكانوا يقدمون مثل هذه المساعدة المالية لنفر من كبار رجال الدولة [٢] . والواقع أن الاخشيد كان يتشبه بابن طولون وكان يقصده — كما مر بنا — أمراء بغداد وقوادها وكتابها وأبناء وزرائها وكان ينفق عليهم بسخاء [٣] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٢

(٢) Ibn Said—Vollers : Fragmente aus dem Mughrib pp. 27-29, Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 104-105.

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٣٩

obeikandl.com

الباب الرابع

الأمراء والبلاط

obeikandl.com

obeikandl.com

الأمراء والبـــــلاط

(١)

محمد بن طغج الاخشيد

عرفنا أن محمد بن طغج الاخشيد ولد ببغداد سنة ٢٦٨ هـ (٨٨٢ م) وتوفى بالشام سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٦ م) . وذكرنا أننا لا نعرف عن نشأته شيئا يستحق الذكر . وسواء أكان الاخشيد من بيت ملك أو إمارة أم كان من الجند الذين ابتسم لهم الحظ فلا شك فى أنه استطاع بما تهيأ له من صفات الزعامة والعبقرية أن يؤسس لنفسه ملكا فى مصر . وإذا كان هذا الملك لم يعمر طويلا فذلك لأن قيامه لم يكن صدى لحركة فى الرأى العام أو خلاف فى العقيدة الدينية أو المبادىء الاجتماعية السائدة فى الدولة العباسية ، وإنما كان بفضل الجهود الشخصية التى بذلها الاخشيد وشق بها طريقه فى الفوضى التى كانت تسود الامبراطورية الاسلامية على عهده .

وتذكر بعض المراجع التاريخية القديمة أن الاخشيد كان أزرق العينين عظيم البطن[١] وأن شعر مقدم رأسه كان منحسراً[٢] وأنه كان شديد البطش ذا قوة مفرطة حتى لا يكاد يجر قوسه غيره[٣] . وكانت له هيبة عظيمة فى قلوب الرعية .

ولكن الاخشيد على الرغم من فرط قوته كان معتل الصحة يعاوده مرض الصرع وتنتابه السوداء فيلجئه ذلك إلى الراحة وطلب العلاج أياما[٤] . ولعل اعتلال صحته

---

(١) « أزرق بطينا » ابن سعيد : المغرب ص ٣٩

(٢) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٢٨

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٥٥ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٦

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٢٥ و ٢٧

وضعف أعصابه هما اللذان كانا يحملانه على الحرص على الهدوء والبعد عن كل جلبة أو ضوضاء ، كما كانا يبعثان فيه ثورات شديدة من الغضب إذا حدث ما يعكر عليه صفو الهدوء أو يخرج عن حدود الوقار والاتزان . ومما يروى في هذا الصدد أن القاضي الشافعي أبا بكر بن الحداد والقاضي المالكي أبا الذكر محمد والقاضي عبد الله بن وليد تنازعوا يوما في مجلس الاخشيد وحدث بينهم لغط كثير فلما انصرفوا قال الاخشيد يجرى هذا في مجلسي ! كدت والله أن آمر بأخذ عمائمهم[١] » .

ويروى بعض المؤرخين أن الاخشيد « كان ملكا حازما كثير التيقظ في حروبه ومصالح دولته حسن التدبير »[٢] وأنه كان شجاعا مقداما عارفا بالحروب[٣] . ويروى آخرون « أنه كان جبانا وكان له ثمانية آلاف مملوك يحرسه في كل ليلة ألفان منهم ويوكل بجانب خيمته الخدم إذا سافر ثم لا يثق حتى يمضي إلى خيم الفراشين فينام فيها »[٤] وحدث ذات مرة أن شاور الاخشيد محمد بن عبد الرحمن الروذباري[٥] في شأن ابن رائق ثم خالف رأيه فقال له الروذباري : « فيك أيها الاخشيد خلتان مذمومتان البخل والجبن ، وما يتم لك معهما شيء إلا بالاقبال »[٦] .

والواقع أننا لا نستطيع أن نطمئن إلى وصف الاخشيد بالشجاعة الزائدة أو الجبن المذموم . فقد كان بعيد النظر حسن السياسة يصطنع اللين عند اللزوم ويداري أعداءه إذا لم يستطع التغلب عليهم ويتألف قلوبهم إذا انتصر عليهم انتصاراً غير حاسم وخشي أن يستعيدوا قوتهم ويصبحوا خطراً عليه . وحسبنا دليلا على ذلك ما وقع بينه وبين ابن رائق وسيف الدولة والفاطميين وبعض الوزراء العباسيين ، فضلا عن موقفه

---

(١) المرجع نفسه ص ٣١ ، وازن الكندي : الولاة والقضاة ص ٥٦٦

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٥

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٦

(٤) المرجع نفسه وابن خلكان ، المرجع السابق .

(٥) كان ينوب عن الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات في أعماله بمصر أنظر ابن سعيد : المغرب ص ٢٤

(٦) ابن سعيد : المغرب ص ٢٥

من بعض الذين كانوا يحقدون عليه أو يكرهونه كابن تكين والماذرائى [١] . أما بخل الاخشيد فقد اشتهر وكان موضع الحديث والنقد عند معاصريه . وقد أشار ابن زولاق إلى ذلك فى فاتحة كتابه عن ابن طغج حين ذكر أنه قرأ سيرة الاخشيد التى كتبها محمد بن موسى بن المأمون الهاشمى لهذا الأمير فى آخر أيامه فوجد أنها أقرب إلى الذم منها إلى المدح « لأنه ذكر نفقاته واقتصاده وأخلاقه ومحبته للعلم والمكافأة وقال فى أوله : ذكر ما فى كتاب الله من الدلالة على فضل الاخشيد . قال الله تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) [٢] ، فنشر فى الناس بخل الاخشيد ، ثم انتزع آيات من القرآن فى الحلم والصفح والعفو ثم قال وهذه صفاته فوصفه بالحين والهلع ، فهذا جميع معنى الكتاب » [٣] .

والحق أن الاخشيد كان جشعاً محباً للمال إلى أبعد الحدود . وتروى المراجع التاريخية فى هذا الصدد قصصاً مختلفة . ومن بعضها ما رواه أبو القاسم سعيد بن فاخر المعروف بقاضى البقر ، وكان من شعراء خمارويه وقارب التسعين ، وكان يبيت عند الاخشيد يحادثه ويسامره وكان مليح الحديث محباً للتندر ببخل الإخشيد وإمساكه والتهكم بالموازنة بينه وبين البرامكة [٤] .

ومما يروى عن جشع الاخشيد وحبه للمال أنه لما عاد إلى مصر بعد فراغه من قتال ابن رائق دعاه محمد بن على الماذرائى مع حاشيته ورؤساء جنده إلى مأدبة كبيرة أقامها تكريماً لهم وجمع لها المغنين والمغنيات وأحضر لها ما لذ وطاب من الطعام والشراب فضلا عن العطر والطيب ونصب فيها بين يدى الاخشيد التماثيل من الكافور والعنبر ، فأظهر الاخشيد سروره بهذا كله وأراد الماذرائى أن يزيد الحفلة بهاء فحمل إلى الاخشيد صينيتين كبيرتين إحداها مملوءة بالدنانير والأخرى بالدراهم لينثر هذا المال

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٢
(٢) قرآن كريم ، سورة الفرقان آية ٦٧
(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤
(٤) المرجع نفسه ص ٣٣ — ٣٤

بين الحاضرين ، ولـكن الأخشيد أخذ صينية الدنانير واكتفى بنثر الدراهم . ولما انصرف أرسل الماذرائى خلفه كل ما كان فى الحفلة من فرش وآنية ، وحمل هذا كله على فرسين بسرج ولجام من ذهب [١] .

ومن القصص التى تروى للدلالة على جشع الاخشيد أن صدقة بن الحسن رئيس دار الضرب حضر مرة إلى مجلس هذا الأمير ومعه دنانير وسبيكة وأحضر السباكين ليقوموا عيار الدنانير بحضرة الاخشيد وأوقدوا النار وجاء صدقة بن الحسن بخمسين ديناراً لتسبك بحضرة الأمير فأخذ منها الاخشيد أربعين ديناراً وسبكت الدنانير العشرة الباقية واعتدل العيار وانصرف رئيس دار الضرب واضطر إلى تعويض أصحاب الدنانير التى أخذها الاخشيد [٢] .

وروى مزاحم بن محمد بن رائق أنه دخل على الاخشيد ذات يوم لابسا فروا ثميناً فأعجب الاخشيد بالفرو وقال انه لم ير مثله قط وكان مزاحم يحب هذا الفرو فضلا عن أنه كان زوج ابنة الاخشيد فلم تسمح نفسه بأن ينزعه لتقديمه الى الأمير . ولكنه لما انصرف من مجلس الاخشيد اعترضه فاتك مولى الأمير ومعه نفر من رجاله وأوهموه أن الاخشيد يريد أن يخلع عليه واقتضى ذلك أن يخلع الفرو فطووه ومضوا به وظل مزاحم ينتظر خلع الأمير فقيل له أنه قد نام وأن من الخير أن يعود اليه فى المساء فطالبهم بالفرو فأنكروا أنهم أخذوه . ولما عاد مزاحم ودخل الأمير وجد عليه الفرو وضحك الاخشيد وقال : « كيف رأيت ؟ ما أصفق وجهك ، ولـكنك ابن أبيك ؟ وكم عرضت لك وأنت لا تستحى فلم تفعل حتى أخذناه بلا شكر ولا منة [٣] » .

وكانت الهدايا تأتي الى الاخشيد فى الأعياد والمناسبات المختلفة وقد عرف عنه أنه كأبيه طفج يحب الطيب ولا سيما العنبر فكان الناس يقبلون على تقديم هداياهم اليه من العنبر ، ولـكن جشع الأخشيد وحبه للمال أهداه إلى طريقة للافادة من ذلك فكان

---

(١) ابن سعيد المغرب ص ٢٩
(٢) المرجع نفسه ص ٣١
(٣) المرجع نفسه ص ٣٤

إذا جاءت مواسم الاهداء يبيع الى التجار مافى خزانته من العنبر فيشتريه الذين يهدونه اليه ، وهكذا كان الاخشيد يكرر هذا العمل ويجمع فى كل مرة مبالغ وافرة من المال[١] .

ومن مظاهر جشع الاخشيد ما استنه من مصادرة الاموال الطائلة من كبار الموظفين والاثرياء . وسوف نعود الى تفصيل الكلام على سياسته فى الاقبال على اغتصاب الاموال . وحسبنا أن نشير الآن الى ما عرف عن هذا الامير من الحياء واللين فى كل هذه المصادرة ، فإنه كان يحرص على ألا يُعذب أحد ممن يأمر بمصادرة أموالهم ويوصى بألا يضيق على أحد أو يساء إليه بسببها . كما كان يتجنب أن يلقى أحدا منهم إلا بعد تمام المصادرة . وكثيراً ما كان يصطفيهم بعد ذلك ويقربهم إليه[٢] .

وكان الاخشيد تقيا ، ومن نوادره فى هذا الصدر أنه أفطر ليلة تسع وعشرين من رمضان فى سنة من السنين « ولحقه كسل عن حضور الختم فقالت له جاريته : تأخر وأنا أعتق عنك غدا عشرة رقاب ، فقال أعشرة رقاب ، ويحك لعله يكون فى هذه الليلة رجل صالح له عند الله منزلة فيقول فى دعائه اللهم اغفر لجماعتنا ، فعسى أن أدخل بهم »[٣] ثم ركب إلى الجامع العتيق فحضر الصلاة والختم .

ويروى أن الاخشيد كان يسير فى أحد شوارع الرملة فصاحت به امرأة من فوق سطح : قف على بوقوفك بين يدى الله ، فرفع وجهه ونزل عن دابته واستدعى المرأة وسألها عن خطبها فاشتكت من أن ابنها الفتى قد أخذوه منها فأمر الأمير باحضاره وأعطى المرأة صرة فيها مائة دينار وقال « خذى ابنك وهذه الصرة فعسى الله أن يرحم ذل موقفى بين يديه »[٤] .

ومما يروى عن تقوى الاخشيد أن رجلا من أهل العراق صعد فوق زمزم وصاح « معاشر الناس ، أنا رجل غريب ورأيت البارحة رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٥ — ٣٦
(٢) المرجع نفسه ص ٣٧
(٣) المرجع نفسه ص ٣٩
(٤) المرجع نفسه .

وهو يقول لى سر إلى مصر والق محمد بن طغج وقل له عنى يطلق محمد بن على الماذرائى ، فقد أضر بولدى » . وسافر الرجل مع القافلة إلى مصر و بلغ الاخشيد خبره فاستدعاه وسأله عما رآه ثم سأله عما أنفق فى مسيره إلى مصر فقال مائة دينار . فقال الاخشيد : هذه مائة دينار من عندى وعد إلى مكة ونم فى الموضع الذى رأيت فيه رسول الله (صلعم) فاذا رأيته فقل لرسول الله أنك بلغتنى رسالته وأنى أجبت بأن لى على الماذرائى كذا وكذا من الأموال وسوف أطلق سراحه إذا دفعها لى. فقال العراقى : ليس فى ذكر رسول الله (صلعم) هزل . وأنا أخرج إلى المدينة وأنفق من مالى وأسير إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأقف بين يديه يقظان بغير منام وأقول له يا رسول الله أديت رسالتك إلى محمد بن طغج فقال لى كذا وكذا . وقام الرجل لينصرف فأمسكه الاخشيد ، والظاهر أنه سر من إجابته واقتنع بأنه ليس نصابا وليس من أنصار الماذرائيين فقال له : إنما ظننا بك ظنا والآن فما تبرح حتى أطلقه ، وأمر الاخشيد باطلاق الماذرائى »[١] .

وكان الاخشيد يحب الصالحين ويركب اليهم ويتقبل دعاءهم ويتبرك بحديثهم . ومن الأولياء الصالحين الذين اتصل بهم رجل فى القرافة عرف باسم ابن المسيب وآخر اسمه أبو سليمان بن يونس[٢] .

وكان الاخشيد لا يتأخر عن صلاة الجمعة فى الجامع العتيق فى رجب وشعبان ورمضان كما اعتاد أن يركب ليلة الختم إلى الجامع ليحضر الختم والدعاء[٣] . وكان يحب قراءة القرآن ويبكى عند سماعها[٤] .

والراجح أن الدوافع الدينية هى التى دفعت الاخشيد إلى أن يأمر فى وقت من الأوقات بهدم المواخير ودور القمار والقبض على من فيها من المقامرين . ويروى فى هذه المناسبة أن جماعة منهم أخذوا فأدخلوا على الاخشيد وعرضوا عليه فرأى بينهم شيخا وقورا

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٥
(٢) المرجع نفسه ص ٣٤ — ٣٥
(٣) المرجع نفسه ص ٣٥
(٤) المرجع نفسه ٣٧

فسأل : هل هذا الشيخ مقامر ؟ فقيل له انه المطمع « وهو سبب عمارة دار القمار وذلك أن الواحد إذا قمر مامعه قال له فالعب على ردائك فلعلك تغلب فاذا ذهب قال له العب على قميصك حتى تغلب » وهكذا كان يحثه على المقامرة بكل شيء حتي يبلغ إلى نعليه بل إلى الاقتراض له . وكان لهذا الشيخ أجر يأخذه كل يوم من صاحب دار القمار . فضحك الاخشيد وقال ياشيخ تب إلى الله وحده من هذا فتاب وأمر له الاخشيد بثوب ورداء وألف درهم وراتب شهرى قدره عشرة دنانير ، وانصرف الشيخ شاكرا فقال الاخشيد ردوه وخذوا ما أعطيناه وابطحوه فضربه مائة عصا ثم قال : خلوه أين هذا من تطميعك[1] ؟ !

والواقع أن الاخشيد كان يجمع بين الاضداد فى صفاته فكان فى بعض الأحيان مكيافيليا لا يقف عند شيء فى سبيل الوصول إلى أهدافه ، ومما يشهد بذلك ما وقع له أثناء نيابته عن أبيه فى حكم طبرية . فقد كان فى هذه المدينة حينذاك رجل من علية القوم بنسبه وثروته : هو أبو الطيب العلوى محمد بن حمزة بن عبيد الله بن العباس بن الحسن ، وكان الجميع يبجلونه ويلتفون حوله . فكتب الاخشيد إلى أبيه طغج يذكر له أنه ليس له أمر ولا نهى مع أبى الطيب العلوى فكتب اليه أبوه « أعز نفسك » فانقض محمد بن طغج على أبى الطيب ذات ليلة وهو فى بستان له فقتله[2] .

ولكن الاخشيد كان يعرف فى كثير من الأحيان كيف يلين أو يصطنع اللين حتى لا يكسر أو يتعرض سلطانه وهيبته لامتحان قد لا يكون النجاح حليفه فيه . ومما يروى فى هذا الصدد أن الاخشيد كان يطلب سهل بن محمد الكاتب البغدادى لمحاسبته على أمور نسبت اليه ، فاختفى سهل وكشف الاخشيد أنه عند أبى ابراهيم الرسى العلوي فأرسل اليه فخرج الرسى وطرد رسل الأمير فنقلوا اليه ما حدث ، فأرسل قائدا من قواده على رأس مائة فارس وأمره بأن يكسر دار أبى ابراهيم الرسى وأن يقبض على سهل الكاتب. واعتصم الرسى فى بيته ولبس الدرع وتقلد السيف ونادى بالقائد الاخشيدى متحديا .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٠

(٢) المرجع نفسه ص ٦

« تقدم ! فوالله لا طمعت فى الدخول أو أقتل ! » وعلم الاخشيد بذلك فسحب قائده وجنوده ثم استدعى أبا ابراهيم الرسى فلما دخل عليه قال الاخشيد : يا أبا ابراهيم الخرب ؟ قال : نعم . فقال الاخشيد فبحق عليك هل سهل بن محمد عندك ؟ قال : نعم . فقال الاخشيد : فهو آمن وهذا خاتمى وأمانى والساعة ازدادت رغبتى فيك ياشريف . قم واحضر سهلا آمنا [١] .

« وكان رسم الاخشيد ألا يتعرض للحرم » [٢] فكان يتعفف عن اضطهاد النساء أو اتخاذهن وسيلة للانتقام من رجالهن أو سبيلا للوصول الى الأموال التى يريد مصادرتها ، وكان يرفض أى عرض من أعوانه فيه خروج على هذا المبدأ النبيل .

ويبدو أن هذه المتناقضات فى أخلاق الاخشيد ، وان بخله وحبه للمال وما سنراه من اضطراب الحالة الاقتصادية على عهده واهمال كثير من المرافق العامة ، كل ذلك أدى إلى أن الاخشيد لم يكن محبوبا من الرعية . ومن صدى هذا البعد عن قلوب الشعب تلك الاسطورة التى نقلها ابو الفدا ، وخلاصتها أن الاخشيد قبل سفره فى آخر رحلة له إلى الشام وجد بداره رقعة مكتوبا عليها « قدرتم فأسأتم ، وملكتم فبخلتم ، ووسع عليكم فضيقتم ، وأدرت لكم الأرزاق فقتطتم أرزاق العباد . واغتررتم بصفو أيامكم ولم تفكروا فى عواقبكم . واشتغلتم بالشهوات واغتنام اللذات ، وتهاونتم بسهام الاسحار وهن صائبات ، ولا سيما إن خرجت من قلوب قرحتموها ، وأكباد أجعتموها ، وأجساد أعريتموها ، ولو تأملتم فى هذا حق التأمل لانتبهتم . أو ما علمتم أن الدنيا لو بقيت للعاقل ما وصل إليها الجاهل ، ولو دامت لمن مضى ما نالها من بقى ؟ فكفى بصحبة ملك يكون فى زوال ملكه فرح للعالم . ومن المحال أن يموت المنتظرون كلهم حتى لا يبقى منهم أحد ويبقى المنتظر به ، افعلوا ما شئتم فإنا صابرون وجوروا فإنا بالله مستجيرون ، وثقوا بقدرتكم وسلطانكم فإنا بالله واثقون ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » [٣] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٧

(٢) المرجع نفسه ص ١٥

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١٠٠ — ١٠١

وكان الاخشيد شديد الاعجاب بابن طولون حريصا على التشبه به فى بلاطه ومواكبه وكان الناس يقرنون اسمه باسم هذا الأمير ، بل ان بعض شيوخ المنجمين فى مصر قال ان الاخشيد دخل إلى مصر بالطالع الذى دخل به احمد بن طولون واتفقا فى اليوم وهو يوم الأربعاء لسبع بقين من شهر رمضان [١] .

ومن الأمور التى كان الاخشيد يقلد فيها ابن طولون أنه كان اذا ذهب الى صلاة الجمعة فى الجامع العتيق أبعد الناس عن المقصورة [٢] . وكانت أكثر صلاة الاخشيد فى جامع ابن طولون إلا فى شهور رجب وشعبان ورمضان . كما كان يتشبه فى مواكبه ورسوم بلاطه بابن طولون ومن أمثلة ذلك التأهب للعرض ليلة عيد الفطر . وقد كتب ابن سعيد فى وصف هذا العرض والاعداد له نصا ننقله هنا لما فيه من مصطلحات تستحق التفسير . قال ابن سعيد نقلا عن ابن زولاق : « ولما كان آخر شهر رمضان ركب الأخشيد بعد عتمة [٣] فحضر ختم الجامع وصلى وأوتر وهو فى وجوه عبيده فى دراعة [٤] بياض وبين يديه خمسمائة غلام بالدبابيس [٥] والمستوفيات [٦] وبين يديه الشمع والمشاعل ، وقيل كان بين يديه مائة فراش بمائة شمعة . ثم أصبح الناس للعرض وجلس فى المنظرة التى على باب دار الامارة ومرت

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٢

(٢) المرجع نفسه ص ٣١ . راجع عن المقصورة ونشأتها ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ٦٨ — ٦٩ و Creswell : Early Muslim Architecture vol. 1 p. 33.

(٣) العتمة الثلث الأول من الليل أو ظلمة الليل مطلقا .

(٤) الدراعة جبة مشقوقة المقدم . أنظر فى شرحها حاشية الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة فى السلوك للمقريزى ج ١ ص ٤٥٢

وراجع Dozy : Dictionnaire des Noms des Vêtements pp. 171-181.

(٥) الدبوس عصا من خشب أو حديد فى رأسها كالكرة ، أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٥

(٦) الراجح أنها ضرب من العصى الخشبية السميكة .

العساكر فلما انقض العساكر ركب غلمانه فى أحسن زى بالتجافيف [١] والجواشن [٢] الى العشاء » .

وكان الاخشيد يخرج لصلاة الجمعة فى موكب كبير يصطف الشعب على الجانبين لمشاهدته . وكان فريق من أهل مصر يكره هذه المواكب أو يكره أن ينصرف الناس عن أعمالهم لمشاهدتها [٣] . وقلد الاخشيد أحمد بن طولون فأمر باقامة حلبة سباق الخيل منذ سنة ٣٢٤ هـ [٤] .

ويبدو أن الاخشيد شعر بعد وفاة الوزير الفضل بن جعفر ومقتل ابن رائق بأن سلطانه قد توطدت دعائمه فاطمأن باله وزاد ميله الى التشبه بابن طولون وابنه خمارويه وأمر بأن تكون فى بلاطه رسوم وتقاليد وقواعد للبروتوكول ، وأن تكون له امتيازات لايشاركه فيها أحد من كبار رجال دولته . ومن ذلك أن يكون لسرج فرسه حلية دقيقة وزخارف خاصة لايشاركه فيها أحد وألا يلبس أحد سواه جبة من الديباج المحلى بخيوط الفضة وألا يكون فى عسكره الخاص أى شيخ وأن يصبغ الشيوخ من جنده وحاشيته لحاهم [٥] .

ومن الطريف ما رواه الحسن بن جابر كاتب عبيد الله بن طغج عما وقع فى هذا الصدد بين سيده عبيد الله بن طغج وأخيه الاخشيد . قال الحسن بن جابر : « كتب صاحبي عبيد الله الى اخيه الاخشيد من الرملة يستأذنه فى المسير اليه لزيارته شوقا اليه فأذن له . فلما قرب دعانى الاخشيد فقال لى : قد قرب أخى أبو الحسين وأنت

---

(١) جمع تجفاف وهى آلة للحرب يلبسها الفارس ويتقى بها كأنها درع ، وترادف كلمة البركستوان أو البركصطوان التى استعملت عند المماليك . راجع زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين ص ٥٦ ، وأساس البلاغة للزمخشرى مادة «جفف» والمعرب للجواليقى ص ٩١ و Dozy : Supplément aux dictionnaires arabes, t. I p. 200. Wiet : Notes d'Epigraphie Syro-Musulmane (dans Syria t. 7) p. 172.

(٢) الجواشن الدروع .

(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٢٨

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ١٨

(٥) المرجع نفسه ص ٣٠

عازم على الخروج للقائه فماذا أنت فاعل ؟ « اكسر عزمه وقل له انك ليس تلقى محمد بن طغج انما تلقى أحمد بن طولون » ، وبالله ان لم يترجل لى لأضربن عنقك ! فسرت فلقيته بفاقوس ، فقلت له : الاخشيد خارج يتلقاك فعلى أى شيء عزمت ؟ قال عبيد الله بن طغج : على أى شيء ؟ قلت تترجل له . قال ما يسومنى أخى هذا . فأخبرته بحديث الاخشيد معي وبأنه هددنى بضرب العنق ان لم يترجل له . فوعد عبيد الله بأن يترجل لأخيه وفعل ذلك عندما أقبل الاخشيد على رأس حرسه الخاص فأمره الاخشيد بالركوب وزاد فى اكرامه [١] .

وقرب الاخشيد اليه نفراً من الطولونيين وأتباعهم فكانوا يؤاكلونه ويسامرونه ومنهم عدنان بن أحمد بن طولون [٢] وابن أخيه قيس بن العباس بن أحمد بن طولون وسعيد الشاعر المعروف بقاضى البقر [٣] . كما كان من أقرب المقربين اليه الشريفان عبد الله بن طباطبا [٤] والحسن بن طاهر بن يحيي وكانا من نقباء العلويين فى مصر .

وكان للاخشيد عدد كبير من المماليك والغلمان والأتباع. وقد وصل الينا من اسماء رؤسائهم بدر الكبير وشادن الصقلبي ومنجح الصقلبي وكافور الأسود وفاتك الرومى وبشرى وغيرهم [٥] .

وكان بلاط الاخشيد مجمعاً للعلماء والأدباء ، يصلهم بعطاياه ويشملهم برعايته ويستمع إلى أحاديثهم [٦] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣٨

(٢) كان من العلماء المشتغلين بالحديث وتوفى سنة ٣٢٥ هـ، أنظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٦١

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١٦

(٤) راجع حاشيتى الأستاذ تاكوست فى صفحتى ٦٧ و ٨٧ من النص الألمانى فى طبعته للمغرب لابن سعيد وانظر ما أشار اليه فيهما من المراجع العربية .

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ١٦

(٦) ذيل كتاب أخبار سيبويه المصرى بتراجم كتبها الناشران ومنها ترجمة للاخشيد (ص٦٧) وقد نسبا فيها للاخشيد بيتين من الشعر . ولكن الصحيح أن هذين البيتين من شعر أحمد ابن كيغلغ وقد نسبهما اليه ابن خلكان فى ترجمة ابن طغج (ج ٢ ص ٥٧) .

وكان قصر الاخشيد غنياً بالجوارى ويظهر أن بعضهن كن يشتركن أحياناً فى الشئون العامة . ومن ذلك أن سمـاية القهرمانة تولت فض النزاع بين قاضى مصر عبد الله بن أحمد بن شعيب المعروف بابن وليد وسليمان بن رستم مقدم الشهود [١] .

وكان للاخشد طبيب خاص ، هو أبو الفرج الباسى ، وكان موضع ثقته ولم تكن مهمته علاج الأمير فحسب ولـكنه كان يشرف على طعامه إشرافاً دقيقاً فيقدم إليه من ألوان الطعام ما يوافق على تقديمه ويرد ما يرى رده [٢] .

ومن مظاهر الثروة والترف فى بلاط الاخشيد ما جمعه من الخيل الجميلة المدربة والجوارح المهيأة للصيد من مختلف الأنواع « مما لم يكن بين يدى خليفة قط » [٣] .

*
* *

توفى الاخشيد بدمشق فى ذى القعدة سنة ٣٣٤ هـ كما مر بنا فى الباب السابق ، وكان قد حكم مصر والشام نحو إحدى عشرة سنة وبلغ من العمر ستة وستين عاماً . ويبدو أنه قضى السنة الأخيرة من حكمه فى الشام يدبر أمورها بعد أن استقر السلام بينه و بين سيف الدولة [٤] .

ولما مات الاخشيد قامت الفتنة فى دمشق ونهب العامة خزائن الأمير ولـكن الظاهر أن قسطاً وافراً من الأموال التى كان يحملها لم تصل إلى أيدى العامة لأن الاخشيد كان يوصى بألا توضع هذه الأموال فى صناديق ينشدها الثوار واللصوص بل فى أكياس مع الأمتعة لا ينتبه إليها أحد . فلما قامت الفتنة أمر كافور بالقاء هذه الأكياس فى بركة من المـاء وظلت فيها حتى سكنت الفتنة [٥] .

وإذا صح ما كتبه ابن سعيد نقلا عن ابن زولاق فان هذه الفتنة التى اندلعت نارها بعد وفاة الاخشيد شغلت رجاله عن دفنه ثلاثة أيام . قال ابن سعيد : «فلما سكنت الفتنة

---

(١) الـكندى : الولاة والقضاة ص ٥٦٨
(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٣٦
(٣) المرجع نفسه ص ٤٣
(٤) المرجع نفسه .
(٥) المرجع نفسه ص ٤٤

بعد ثلاث وجد الاخشيد قد انتفخ وأكل الفأر أطراف أصابعه وأكل الذر عينيه [١] فغسل صبا [٢] وطلب له كافور فلم يوجد إلا من السوق مغشوشاً ، وطلب له بغل يحمل تابوته فلم يوجد إلا جمل أعور فحمله عليه الخازن وسار به إلى بيت المقدس . وحدثنى محمد بن المنهال . قال : لقيت تابوت الاخشيد بنواحى طبرية على جمل أعور والذين معه من السودان يتأذون بريحه وإذا نزلوا بعدوا منه إلى أن وصلوا به إلى بيت المقدس ودفن هناك [٣] .

والواقع أن سائر المؤرخين لا يذكرون إلا وفاته فى دمشق ونقل جثمانه إلى بيت المقدس حيث دفن [٤] ، ولكن ابن زولاق انفرد بذكر ما حل بجثمانه وما كان فى دفنه من مظاهر لا تليق بأمير كبير مثله خلف ملكا وأولاداً وقواداً وعبيداً ظلوا مخلصين له إلى النهاية . ولعل هذا كله يدعونا إلى أن نأخذ بشىء كثير من التحفظ والحذر ما رواه ابن زولاق فى هذا الصدد . ولو أنه قال ان جثمان الاخشيد نقل سراً إلى بيت المقدس حيث ووري التراب لأمكن تعليل ذلك بالفتن التى قامت فى دمشق بعد موته وبثورة الشعب واشتغاله بالنهب والسلب قبل أن تقبض الحكومة على ناصية الأمور . ولكن ليس من السهل أن نوفق بين بقاء جثمان الاخشيد إلى أن سكنت الفتنة وعجز كافور وأعوانه — بعد أن استقرت الأمور — عن حماية هذا الجثمان أو نقله بما يليق بالاخشيد من تكريم وما يتفق وجلال الموت . وليس بمستبعد أن تكون رواية ابن زولاق من الزيادات أو التعديلات التى طرأت على المخطوطة الأولى من كتابه بعد أن دخل الفاطميون مصر واتصل بهم هذا المؤرخ وعمل على التقرب اليهم .

*
* *

(١) الذر صغار النمل .

(٢) لعله يقصد بصب الماء دون أن يمس جسده .

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤٤

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٥ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٥٦ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٦ — ٢٧

وقد استطاع الاخشيد أن يجمع من مصادرة أموال الوزراء والأعيان وكبار الموظفين وبغير ذلك من الطرق مبالغ طائلة يمكن أن نتصور مقاديرها مما يذكره المؤرخون عما خلفه هذا الأمير . فقد كتب ابن زولاق أن مما خلفه الاخشيد سبع مطامير [١] فى كل مطمورة منها مليون دينار ، كما خلف من الجواهر ما قيمته مائتا الف دينار ، ومن العنبر ثمانمائة رطل ، ومن العبيد ثلاثة آلاف ما بين روم ومولدين وسود ، وخلف من الخيل لركابه ألفاً ومائتى فرس سوى دواب غلمانه ، وخلف من البغال ثلاثة آلاف ، ومن النوق ثلاثة آلاف ، ومن المراكب مائة مركب سوى العشاريات [٢] . وكان كل مركب منها يقدر بثلاثة آلاف دينار [٣] . والراجح أن فى حديث ابن زولاق شيئا من المبالغة ولكنه يدل على ما وصل إليه الاخشيد من ثروة وترف .

---

(١) المطمورة : الحفيرة فى الأرض تخبأ فيها الأشياء أو الاناء تخزن فيه النقود . انظر
Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes.

(٢) العشارى نوع من المراكب كان يسمى فى عصر المماليك الحراقة والظاهر من استثنائه فى هذا النص أنه كان للملاحة النيلية أو كان صغير الحجم، انظر وصفها فى رحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر ص ٥٤ (فصل فيما شاهد فيها من غرائب الأبنية والسفن) وراجع القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥١٧ ، ومادة « سفينة » فى ملحق دائرة المعارف الاسلامية و
Aly Mohamed Fahmy: Muslim Sea—Power in the Eastern Mediterranean from the Seventh to the Tenth Century pp. 150-152.

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤٤

(٢)

كافور وأولاد الاخشيد والأمراء الاخشيديون

عرفنا أن الاخشيد عقد قبل وفاته لولده أونوجور [١] من بعده . وكان أونوجور أكبر أولاده . ولد بدمشق فى ٩ من ذى الحجة سنة ٣١٩ هـ (ديسمبر سنة ٩٣١ م) فكان لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره عند ما ولى الحكم . وقد مر بنا فى الباب السابق بيان المشاورات التى انتهت بتوليته .

ولسنا نعرف شيئا يستحق الذكر عن صفاته فقد كان الأمر على عهده بيد كافور إذ « غلب كافور على الأمر وبقى الاسم والدست لأبى القاسم (أونوجور) » [٢] ولم يتح كافور لأبى القاسم أى فرصة ليظهر مزاياه أو عيوبه فى الحكم . وزاد نفوذه حتى أصبح يدعى له على المنابر كلها منذ سنة ٣٤٠ هـ [٣] . وكان على أونوجور أن يكتفى بانفاق « المخصصات » التى حددها له كافور وقدرها أربعمائة ألف دينار فى العام [٤] وأن يترك تدبير الأمور لكافور وأعوانه .

وظل الحال كذلك إلى سنة ٣٤٣ هـ حين شعر أونوجور بأنه جاوز سن الرشد وبأن من حقه أن يقبض على أزمة الحكم وزين له بعض المتصلين به أن يتنكر لكافور وقالوا له : « قد احتوى كافور على الأموال وانفرد بتدبير الجيوش وأخذ أملاك أبيك وأنت معه مقهور » [٥] فبدأ أونوجور فى إظهار سخطه على سير الأمور وظهر الجفاء بينه وبين كافور وترك الحاضرة وانصرف إلى الصيد واللهو فى الأقاليم ، ولكن يبدو أنه كان يدبر الخروج إلى الرملة والاستعداد لمناوأة كافور وصرفه عن تدبير الأمور .

---

(١) كتبت فى بعض المراجع القديمة أنوجور وفى مراجع أخرى أونجور وقيل إن معناها « محمود » ، أنظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٥

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧

(٤) المرجع نفسه ج ١ ص ٣٢٩ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٩١

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٩٢

وانقسم الجند إلى طائفتين : الكافورية وينصرون كافورا والاخشيدية وينصرون أونوجور .

ولكن والدة أونوجور كانت لاتثق باستطاعته التغلب على كافور وكانت تخشى عليه من بطشه فكتبت إلى ابنها تخوفه من عاقبة الفتنة وأعلمت كافوراً بأن ابنها ينوي الرحيل عن مصر فكتب كافور إلى أونوجور وصالحه ودام الأمر فى شئون الدولة على حاله وظل كافور يدبر أمورها لأونوجور إلى أن توفى الأخير فى ذى القعدة سنة ٣٤٩ ونقل جثمانه إلى بيت المقدس حيث دفن إلى جوار أبيه . ويقال انه لم يمت ميتة طبيعية بل دس كافور له السم فمات [١] ، بعد أن ولى حكم مصر نحو أربع عشرة سنة .

ولما مات أونوجور وخلفه فى حكم مصر أخوه على بن الاخشيد زاد نفوذ كافور وظل الأمير الجديد ينفق « المخصصات » التى كانت لأخيه من قبل وقدرها أربعمائة ألف دينار فى السنة ولا أمر له فى شئون الحكم على الرغم من أنه كان عند ولايته الحكم فى الثالثة والعشرين من عمره [٢] . بل ان كافوراً لم يكن يتركه يظهر للشعب أو يجتمع بغير ندمائه إلا معه ويبدو أن على بن الاخشيد انصرف إلى اللهو والشراب فترة من الزمن ثم تاب عن شرب النبيذ ولزم الصلاة وقراءة القرآن [٣] .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧

(٢) فى مجموعة الأرشيدوق رينر فى ڤينا وثيقة من الورق ورد ذكرها فى دليل هذه المجموعة Führer durch die Ausstellung No. 984; p. 255, وتتضمن كتابا « من الأمير أبى الحسن عزيز الخاصة الاخشيدية » لأشخاص ذكرت أسماؤهم بتسجيل ثلاث ساقيات سنة ٣٣٩ هـ ويشير الدليل إلى أن أبا الحسن هنا هو أبو الحسن على بن طغج ، وقد تفضل الأستاذ جرومان فأطلعنى على صورة هذه الوثيقة وملاحظاته عليها . ويبدو أنه يوافق على نسبتها إلى على بن الاخشيد ويذهب إلى أنه كان ناظر الخاصة للأمير الاخشيدى . ولكننا لانميل إلى الأخذ بهذا الرأى لأن على بن الاخشيد كان سنة ٣٣٩ فى الثالثة عشرة من عمره وليس من المحتمل أنه كان يشغل منصبا كمنصب ناظر الخاصة . والراجح عندنا أن المقصود أمير آخر من أمراء الأسرة الاخشيدية ، ومما يلفت النظر لقب « عزيز بمعنى أمير أو رئيس » مما يذكر بلقب « عزيز مصر » الذى أطلق على محمد على الكبير . ولكنه لقب قديم للرياسة وعظم السلطان . أنظر ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٩ و ٣٢ ، وقد ورد هذا اللفظ فى القرآن الكريم (سورة يوسف) بمعنى الملك أو الأمير .

(٣) جمال الدين ابن ظافر الازدى فى Wüstenfeld : Statthalter IV. p. 85.

ويبدو أن هذا الأمير حاول سنة ٣٥١ هـ أن ينحى كافورا عن تدبير أمور الدولة فلم يفلح لضعف شخصيته وقلة أنصاره بعد أن قويت شوكة كافور وأصبح صاحب الأمر والنهى فى كل شىء. وكان من أثر هذه المحاولة أن فسدت العلاقة بينه وبين كافور. واستطاع كافور أن يمنع الناس من الاجتماع بابن الاخشيد. ومات الأخير فى شهر المحرم من سنة ٣٥٥ وقيل ان كافورا دس له السم كما فعل مع أخيه من قبل. ثم حمل جثمانه إلى بيت المقدس فدفن إلى جوار أبيه وأخيه [١].

أما الأستاذ [٢] أبو المسك [٣] كافور الاخشيدى فيسمى أحيانا اللابى نسبة إلى إقليم اللاب من بلاد النوبة، ويتبين ذلك فى قول المتنبى من قصيدة فى هجائه:

كأَنَّ الأسوَدَ اللابِىَّ فِيهِم غُرابٌ حَولَهُ رَخَمٌ وَبُومُ [٤]

ويسميه ياقوت فى معجم البلدان (مادة بُسْت) البثى الصورى ولكنا لا نعرف سبب هاتين النسبتين.

وكان كافور عبدا أسود بصاصا [٥] خصيا قبيح الشكل بطينا ثقيل البدن قبيح القدمين منقوب الشفة السفلى. ولسنا ندرى فى أى سنة ولد، ولكن الراجح أن مولده كان فى الحبشة أو النوبة بين عامى ٢٩٢ و ٣٠٨ هـ (٩٠٥ و ٩٢٠ م) اذ اختلفت الروايات فى تحديده اختلافا كبيرا [٦].

---

(١) الكندى: الولاة والقضاة ص ٢٩٦ والمقريزى: الخطط ج ١ ص ٣٢٩ — ٣٣٠ و ج ٢ ص ٢٧ وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٥ — ٣٢٦

(٢) كان لقب الأستاذ فى بعض الأحيان لقبا للوزراء فكان ابن العميد يلقب به (أنظر متز: الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٢٧) وكان كافور يلقب به قبل توليته امارة مصر والراجح أنه أصبح لقبا له منذ عهد إليه الاخشيد بتربية ولديه.

(٣) كنية كناه بها الخليفة؛ المقريزى: الخطط ج ٢ ص ٢٧

(٤) الرخم طائر يشبه النسر. أنظر ديوان المتنبى ص ٤٢٩

(٥) بصاص وصف من بص إذا برق ولمع وتلألأ.

(٦) نقل ابن خلكان (وفيات الاعيان ج ١ ص ٥٤٧) عن الفرغانى أن كافورا مات سنة ٣٥٧ هـ فى الخامسة والستين من عمره فيكون مولده نحو سنة ٢٩٢ هـ وذكر ابن ظافر الازدى Wüstenfeld: Statthalter IV. p. 59. أن كافورا جاب إلى مصر سنة ٣٢٢ وعمره =

ولا ريب فى أن ارتفاعه من عبد حقير لا شأن له إلى منصب الامارة فى مصر ثم اتصال المتنبي به ومدحه ثم هجاءه بغرر قصائده ، كل ذلك أثار إعجاب المؤرخين المسلمين حتى عدوه من « أعاجيب الدنيا وسيرته من أغرب السير »[١] وحفزهم إلى أن ينسجوا حول نشأته قصصا مختلفة لسنا نعرف نصيبها من الصحة ولا سيما أن بعضها يذكر « بالاكليشيهات » التاريخية التى رواها المؤرخون العرب عن كثير من أبطال التاريخ الاسلامى . ومهما يكن من الأمر فالراجح أن كافورا جلب إلى مصر مع عبيد آخرين من مواطنيه فبيع لتاجر من تجار الزيت[٢] ، وقيل لرجل من أصحاب الضياع فى مصر اسمه محمد بن هاشم . وبيع بعد ذلك لرجل يدعى محمود بن وهب بن عباس الكاتب[٣] ، ثم اشتراه منه محمد بن طغج الاخشيد بثمانية عشر دينارا فرباه وأعتقه . وفى رواية أخرى أن ابن عباس الكاتب أرسل كافورا ذات يوم إلى محمد بن طغج بهدية ، وكان ابن طغج حينئذ أحد قواد تكين أمير مصر ، فتوسم فى كافور الذكاء وأخذه ورد الهدية إلى صاحبها[٤] .

ويروون أن كافورا مر بعد جلبه إلى مصر على منجم ذات يوم فرأى له طالعه ونظر له فى نجومه وقال له : « أنت تصير إلى رجل جليل القدر وتبلغ معه مبلغا عظيما » فدفع له كافور درهمين ولم يكن معه سواهما ، فرمى بهما إليه وقال : « أبشرك بهذه البشارة وتعطينى درهمين » ثم قال له : « وأزيدك . أنت تملك هذه البلد وأكثر منه فاذكرنى[٥] » . وقيل إن كافورا بعد أن بلغ مرتبة الملك رأى هذا المنجم فى المنام وهو يقول له : « لم نفترق على هذا » فسأل عنه كافور وعرف أنه مات منذ سنين وأن له بنتين إحداهما

= أربع عشرة سنة فيكون مولده نحو سنة ٣٠٨ هـ وكتب المقريزى (الخطط ج ٢ ص ٢٦) أن كافورا جلب إلى مصر سنة ٣١٠ هـ وعمره عشر سنين وأنه مات سنة ٣٥٧ وعمره ستون فيكون مولده نحو سنة ٢٩٧ ، أنظر أيضاً ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ١٩٩

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٦

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٥ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٦

(٤) ابن خلكان والمقريزى وأبو المحاسن ، المراجع السابقة وابن سعيد : المغرب ص ٤٦

(٥) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٦

متزوجة والأخرى فتاة فى سن الزواج فاشترى لها كافور دارا بأربعمائة دينار ودفع للفتاة مائتى دينار لتجهز بها [١] .

ويقال إن كافوراً عند ما جلب من بلاد السودان مر على السوق بمصر ومعه عبد أسود آخر فقال هذا العبد : كنت أتمنى أن أباع لطباخ حتى أكون طول عمرى شبعان من المطابخ . فقال كافور : وأنا أتمنى أن أملك هذه المدينة . وبعد أن بلغ كافور الملك مر يوما على السوق فرأى زميله القديم فى ثياب الطباخين وهو يحرك القدر فضحك وقال : « أدرك كل واحد ما أمله » [٢] .

وكأنما أراد بعض المؤرخين أن يبينوا إلى أى درجة من البؤس وصل كافور قبل ارتفاعه إلى الشوكة والسلطان فذهبوا إلى أنه فى بداية أمره لحقه جرب كثير حتى كان لا يظهر ولا يقابل ، فطرده سيده ، فكان يمشى فى السوق . وحدث أن مر بطباخ فيه فطلب منه بعض الطعام فضربه الطباخ بالمغرفة على يده وهى حارة فوقع مغشيا عليه ، فأخذه رجل طيب القلب وداواه حتى شفى فسار به إلى سيده وأخذه سيده وعرض على الرجل أجراً على إيوائه وعلاجه فرفض الرجل قائلا: « أجرى على الله ». وكان كافور بعد ارتفاعه يذكر هذا الحادث كلما عزت نفسه . وربما سار إلى السوق وسجد إلى الله شكراً وقال لنفسه : أذكر ضرب المغرفة [٣] !

ولاريب فى أن الاخشيد أدرك ما كان يمتاز به كافور من الذكاء والهمة والاخلاص فقربه إليه. وظلت منزلته عنده ترتفع تدريجياً حتى أصبح موضع ثقته وأقرب المقربين إليه . والمؤرخون حريصون على تفسير هذه الحظوة عند الاخشيد ببعض القصص التى يروونها عن اخلاص كافور . ومنها أن الاخشيد كان فى مجلسه ذات يوم وبين يديه عبيده وجيء بفيل وزرافة وأقبل العبيد على النظر إلى الحيوانين الغريبين وانصرف انتباههم عن سيدهم

(١) ابن ظافر الازدى فى Wüstenfeld : Statthalter IV. p. 60. وانظر أيضاً ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٢٠٠

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٤٦

(٣) ابن ظافر الازدى : المرجع السابق ص ٥٩ — ٦٠ وابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٢٠٠

الاخشيد، ولكن كافوراً وحده « لم تبرح عينه من عين الاخشيد خوف أن يحتاج إليه ويدعوه فيكون مشتغلا عنه »[١] فأعجب الاخشيد بيقظة كافور وتفانيه فى خدمته.

ومنها كذلك ما رواه طبيب الاخشيد من أن هذا الأمير اشتهى يوما لوناً من ألوان الطعام يسمى البقرية فأعد له، وبادر كافور فحمله بيده إلى سيده. ولم يكن هذا من الأعمال المكلف بها بعد أن ارتفعت مرتبته فى بلاط الأمير، فلما خرج قال له الطبيب: « ما يزيدك الله بهذا إلا رفعة » فقال كافور: « كانت شهوة مولاى لها قوية فأحببت أن أدخل أنا بها ». ولما رفعت المائدة دخل الطبيب على الاخشيد وسأله عن أكله فقال ان البقرية كانت طيبة وان أعجب ما فيها حمل كافور لها. وأضاف الاخشيد « وحياتك يا أبا الفرج (أى الطبيب) لا جلس فى هذا المجلس غيره ولا أخذ هذا المال سواه!»[٢].

ويحرص بعض المؤرخين على أن يفسروا ازدياد ثقة الاخشيد فى كافور بأنه رأى فى المنام كأنه سلم إلى غلام من كبار غلمانه شيئا فلم يقم به ثم نقله إلى غيره فلم يقم به حتى سلمه إلى كافور وانتبه من نومه وهو فى يد كافور. وقص الاخشيد هذه الرؤيا على أحد مفسرى الأحلام فقال ان هذا الملك يعود إلى كافور. ويرى هذا المفسر أن هذه الرؤيا كانت سببا فى وصية الاخشيد بأن يكون كافور مدبرا لشئون ابنه من بعده[٣].

والواقع ان بعض المؤرخين يذكر أن الاخشيد كان يتنبأ بأن كافورا سيرث ملكه من بعده وأنه كان يقول فى كثير من الأحيان: « والله لا ورث دولة ابن طغج إلا هذا العبد » يعنى كافورا[٤]. ولكنا نرجح أن مثل هذا الزعم فيه شىء من المبالغة لأنه لو صح لانتظرنا ألا يعهد الاخشيد إلى كافور بالوصاية على ولده من بعده فيسلمه بذلك مقاليد الأمور منحيا سائر أفراد أسرته. أو لعله كان يرى الا مفر من التسليم بما لابد منه!

---

(١) ابن سعيد: المغرب ص ٤٧
(٢) المرجع نفسه ص ٣٦
(٣) المرجع نفسه ص ٣٦
(٤) المرجع نفسه ص ٤٦ — ٤٧

ومهما يكن من الأمر فان الاخشيد عنى بتربية كافور ثم أعتقه . وظل كافور يرتقى فى بلاط هذا الأمير ويتدرب على مختلف شئون الحكم والادارة حتى أصبح من كبار قواده وذوى الشأن فى دولته ، فعهد اليه الاخشيد بتربية ابنيه أونوجور وعلى ، كما عهد اليه بقيادة جيشه فى قتال سيف الدولة وبغير ذلك من الأمور الخطيرة الشأن .

وتبع كافور سيده الاخشيد إلى النهاية وكان إلى جانبه عندما توفى فى دمشق وعمل على القضاء على الفتنة التى قامت فى هذه المدينة وحافظ على قسط كبير من الأموال التى كانت مع البلاط حينئذ. ثم كان له بعد ذلك الفضل فى القضاء على ثورة غلبون وفى صد سيف الدولة واعادة دمشق إلى حكم الاخشيديين كما سنرى فى الأبواب القادمة .

وقد مر بنا كيف أصبحت مقاليد الأمور كلها بيد كافور بعد وفاة الاخشيد ، وعرفنا أن أونوجور حاول سنة ٣٤٣ أن ينحى كافورا عن تدبير شئون الدولة ولكنه لم يفلح وقامت « الوحشة » بينهما فترة من الزمن ثم اصطلحا واحتفظ كافور بكل سلطانه . وطبيعى أن هذه الوحشة بين الأمير الاخشيدى ورئيس حكومته الآمر الناهى كانت حديث الناس . ونظم المتنبى قصيدة بعد تمام الصلح بينهما نذكر منها الأبيات الآتية لما تدل عليه من طبيعة العلاقة بين الأمير وكافور ولما فيها من اشادة بذكر الصفات التى ساد بها كافور :

حَسَمَ الصُّلْحُ ما اشتَهَتْهُ الأَعادِى وأَذاعَتْهُ أَلسُنُ الحُسَّادِ
وأَرادَتْهُ أَنفُسٌ حالَ تدبيـــرُكَ ما بينَها وبين المُرادِ
وأَشارَتْ بما أَبَيْتَ رِجالٌ كُنتَ أَهدَى مِنها إلى الإِرشادِ[1]
نِلْتَ ما لا يُنالُ بالبِيضِ والسُّمـــرِ وصُنتَ الأَرواحَ فى الأَجسادِ
فَفَدَى رَأْيَكَ الَّذى لم تُفَدْهُ كُلُّ رَأْيٍ مُعلَّمٍ مُستَفَادِ
فبِهذا ومِثلِهِ سُدتَ يا كافـــورُ واقتَدتَ كُلَّ صَعبِ القِيادِ

(١) لعل فى ذلك إشارة إلى أن كافورا أبى أن يأخذ أونوجور بالشدة والعنف كما أشار عليه بعض ناصحيه .

إنّما أنتَ والدٌ والأبُ القـــاطِعُ أحنَى من واصِلِ الأولادِ
لا عَدَا الشَّرُّ مَن بغَى لَكُمَا الشَّرَّ وخَصَّ الفَسادُ أهلَ الفَسادِ
أنتُما ما اتَّفقتُما الجِسمُ والرُّو حُ فلا احتَجْتُما إلى العُوَّادِ
هذِهِ دَولَةُ المكارِمِ والرَّأْ فةِ والمجدِ والندَى والأيادِي
يَزَحَمُ الدَّهرَ رُكنُها عن أذاها بِفَتًى مارِدٍ على المُرَّادِ[1]
مُتْلِفٍ مُخْلِفٍ وَفِيٍّ أبِيٍّ عالِمٍ حازِمٍ شُجاعٍ جَوادِ[2]

وقد عرفنا أن كافورا ظل الحاكم المطلق فى البلاد بعد وفاة أونوجور وتولية أخيه على . ولما توفى على بقيت مصر أياما بغير أمير ، فكان لا يدعى على المنابر إلا للخليفة المطيع . والظاهر أن كافورا استشار بعض ذوى الرأى فى البلاد ورأى بعضهم من الواجب أن ينصب احمد بن على بن الاخشيد وكان فى التاسعة من عمره وأن يظل تدبير الأمور بيد كافور ، ولكن كافورا لم يحبذ هذا الرأى محتجا بأن احمد ابن على لا زال صغير السن ، وانتهى الأمر بتحقيق رغبته فى أن يكون له حكم البلاد ومع ذلك فقد احتفظ كافور بلقب « الأستاذ »[3] . ولعله كان يرى فيه تكريما واعترافا بالمكانة التى وصل اليها بجهوده . كما كان يتجنب به الاعتراض على شرعية ولايته العرش.

بيد أن حكم كافور لم يطل أمده فقد توفى فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ أى بعد انفراده بحكم مصر زهاء سنتين وأربعة أشهر . وحمل تابوته إلى بيت المقدس فدفن فيها[4] . وفى قول آخر أنه دفن فى القرافة الصغرى بمصر[5] .

---

(١) المراد بالفتى كافور .
(٢) ديوان المتنبى ص ٣٩٣ — ٣٩٦
(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠
(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٧

وقد تهيأ لكافور كثير من صفات الزعامة التى استطاع بفضلها أن يسود على الرغم من أصله الوضيع . وعلى رأس هذه الصفات معرفته الناس وأساليب معاملتهم ، وأخذ بعضهم باللين وبعضهم الآخر بالشدة ، واصطناع الحلم حينا وإظهار الغضب حينا آخر ، والتوفيق بين أصحاب التيارات المختلفة والأهداف المتباينة . ولقد صدق المتنبى حين قال من قصيدة فى مدح كافور :

إذا مَنَعَت مِنكَ السياسةُ نَفسَهَا فَقِفْ وَقفَةً قُدَّامَهُ تَتَعَلَّمِ (١)

ومن سياسة كافور فى كسب قلوب الشعب أنه كان يجل أهل البيت ويكرم العلويين أعظم الإكرام . ويروى فى هذا الصدد أنه كان يسير يوما مع أبى جعفر مسلم ابن عبيد الله بن طاهر العلوى النسابة ، وهو فى موكب وبين يديه بعض حاشيته وخلفه بغال عليها بعض الأمتعة والمال ، فسقطت مقرعة كافور ولم يرها أحد من حاشيته وخدمه فنزل العلوى عن دابته وأخذ المقرعة من الأرض ودفعها إلى كافور ، فقال كافور : أيها الشريف ، أعوذ بالله من بلوغ الغاية ، ما ظننت أن الزمان يبلغنى حتى تفعل بى أنت هذا ! وكاد يبكى . فقال العلوى : أنا صنيعة الأستاذ ووليه . ولما بلغ كافور باب قصره ودع العلوى ثم أرسل خلفه كل ما كان على البغال من مال ومتاع وكانت قيمته تزيد على خمسة عشر ألف دينار (٢) .

ومما يروى فى هذا الشأن قصة لكافور مع عبد الله بن احمد بن على بن إبراهيم ابن طباطبا ، وكان من أغنياء العلويين فى العصر الأخشيدى ومن عاداته أن يبعث إلى كثير من أهل مصر بهدايا من الحلوى فى شتى المناسبات . وكان يرسل إلى كافور كل يومين صحنين من الحلوى ورغيفا فى منديل مختوم . فحسده بعض الأعيان وقال لكافور أن إرسال الرغيف إلى الأمير أمر لا يليق ، فأرسل كافور إلى الشريف

(١) يقول إذا كنت لا تحسن السياسة فقف قدام كافور مرة واحدة وهو يتعاطاها تتعلم منه « الحاشية ٧ من صفحة ٣٩١ فى ديوان المتنبى » .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣ — ٤ .

العلوى يسأله أن يعفيه من الرغيف ، فأدرك الشريف أنهم حسدوه وقصدوا إبطال عادته فذهب إلى كافور وقال له : « أيدك الله ! إنا لا نتفذ الرغيف تطاولا ولا تعاظما ، وإنما هى صبية حسنية تعجنه بيدها وتخبزه فنرسله على سبيل التبرك فاذا كرهته قطعناه » فقال كافور : لا والله لا تقطعه ولا يكون قوتى سواه ! » وعاد العلوى إلى ما كان عليه من إرسال الحلوى والرغيف[١] .

ومن طريف ما كتبه المؤرخون عن سياسة كافور ما نقله أبو المحاسن عن الذهبى حين قال : « كان خبيرا بالسياسة فطنا ذكيا جيد العقل داهية . كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه . وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء وتم له الأمر »[٢] .

وقد خلف الأمراء الاخشيديون لكافور أموالا طائلة فزاد عليها وأظهر ما طبع عليه من الجود والكرم ، وقيل انه وقع يوما لأحد القواد بعطاء قدره أربعة عشر ألف دينار فما زال عبدا له حتى مات[٣] . وذاع صيت بلاطه وعطاياه وقصده أصحاب الحاجات وأعلام الشعراء والأدباء . وحسبنا شاهدا على حياة البلاط فى عصره ما قيل من أن سماطه كان فى اليوم الواحد مائتى خروف كبار ومائة خروف رميس ومائتين وخمسين أوزة وخمسمائة دجاجة وألف طير من الحمام ومائة صحن حلوى كل صحن عشرة أرطال ومائتين وخمسين قربة من شراب يصنع من السكر المحلول بالماء والليمون ويسمى أقسما[٤] . ويقال انه كان لكافور خزانة شراب كان يفرق منها فى الحاشية كل يوم خمسين قربة من مختلف أنواع الأشربة وأن قاضى أسيوط كان يهدى إلى كافور كل عام خمسين ألف سفرجلة تعمل شراب سفرجل[٥] . . وقد يكون فى هذا الاحصاء شىء من المبالغة ولكنه يشهد بما عرف عن بلاط كافور من الكرم والعظمة .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٦ وفى الكواكب السيارة لابن الزيات ص ٦١ يقول : « إن له والدة صالحة تعجن بيدها وتقرأ عليه القرآن » .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧

(٤) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٢٠٠ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٩ ، أنظر أيضاً ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٤٣

(٥) ابن ظافر الازدى : المرجع السابق ص ٥٩

وقيل إن كافوراً كان يرسل كل ليلة عيد حمل بغل من المال فى صرر مكتوب على كل صرة اسم من جعلت له من بين عالم وزاهد وفقير ومحتاج[١] . وممن ذكر ذلك من المؤرخين جمال الدين بن ظافر الأزدى وقد فصل الكلام عليه فى قطعة طويلة من النبذة التى عقدها للكلام على الدولة الاخشيدية فى كتابه « أخبار الدول المنقطعة » وقد وردت هذه القطعة فى المخطوط المحفوظ فى المتحف البريطانى من هذا الكتاب . وفى دار الكتب المصرية صورة منه مأخوذة بالتصوير الشمسى . ولكنها لم ترد فى الجزء الذى نقله وستنفلد عن المخطوط المحفوظ فى مكتبة غوطا وهو الجزء الذى نشره فى كتابه بالألمانية عن ولاة مصر فى عصر الخلفاء . وقد وازنا بين ما نقله وستنفلد عن المخطوط المذكور وما جاء عن الدولة الاخشيدية فى مخطوط المتحف البريطانى فوجدنا أن الذى يزيد فى المخطوط الأخير هو القطعة الطويلة التى نحن بصددها وقصتان صغيرتان هما قصة كافور مع العلوى الذى نزل عن دابته وناوله مقرعة سقطت منه، وقد أشرنا إلى هذه القصة نقلا عن أبى المحاسن ، ثم قصته بشأن الحلوى والرغيف الذى كان يرسله إليه ابن طباطبا . وقد أشرنا اليها أيضا معتمدين على ابن خلكان . ولذلك كله رأينا أن ننقل هنا القطعة الطويلة التى جاءت فى مخطوط المتحف البريطانى ولم ينشرها وستنفلد .

قال ابن ظافر الازدى يتحدث عن كافور :

« وله رحمه الله مع الشيخ أبى عبد الله بن جاباز الصوفى الزاهد شيخ الفقاعى رحمهما الله وكان من كبار المشايخ قصة عجيبة هى من غرر مناقبه . ذكر المسبحى فى تاريخه قال : حدثنى ابن الدابة كاتب أبو بكر القمى[٢] عن أبى الحسن البغدادى قال : وردت إلى مصر مع والدى وأنا صبي دون البلوغ فى أيام كافور . وكان أبو بكر المحلى يتولى نفقات مصالحه وخواص خدمه . وقد انتسجت بينه وبين أبى مودة . وكان يزوره ويصله . قال : فجاءه ذات يوم فتذاكروا أخبار كافور وطريقته وما هو عليه من الخشوع . فقال أبو بكر لأبى ، وأنا أسمع : هذا الأستاذ كافور

---

(١) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٢

(٢) نسبة إلى قِمَن ، انظر ابن الجيعان : أسماء البلاد المصرية ص ١٤٥ . أو لعلها القمى نسبة إلى قم فى فارس .

له فى كل عيد أضحى عادة ، وهو أن يسلم إلىّ بغلا محملا ذهباً وورقاً وجريدة تتضمن أسماء قوم من حد القرافة إلى المنامة وما بينهما . ويمضى معى صاحب الشرطة ونقيب يعرف المنازل ، وأطوف من بعد العشاء الأخيرة إلى آخر الليل حتى أسلم ذلك إلى من جعل له وتتضمن اسمه الجريدة . فأطرق منزل كل انسان ما بين رجل وامرأة وأقول : الأستاذ أبو المسك كافور يهنيك بعيدك ويقول لك أصرف هذا فى منفعتك ، فأدفع إليه ما جعل له . فلما كان هذا العيد جريت على العادة وزاد فى الجريدة الشيخ أبو عبد الله بن جاباز مائة دينار . فأنفقت المال فى أربابه ولم يبق إلا الصرة فجعلتها فى كمى وسريت مع النقيب حتى أتينا منزله بظاهر القرافة ، فطرقت الباب فنزل الينا شيخ عليه أثر السهر فسلمت عليه فلم يزد عليه وقال : ماحاجتك ؟ قلت : الأستاذ أبو المسك كافور يخص الشيخ بالسلام . فقال : والى بلدنا ؟ قلت : نعم قال : حفظه الله . الله يعلم أننى أدعوله فى الخلوات وإدبار الصلوات وللمسلمين بما الله سامعه ومستجيبه . قلت : وقد أنفذ معى هذه الصرة وهو يسألك قبولها لتتصرف فى نوبة هذا العيد المبارك . فقال نحن رعيته ونحن نحبه فى الله تعالى وما نفسد هذا بعلة . فراجعته القول فتبين لى الضجر فى وجهه والقلق والتلهف واستحييت من الله تعالى أن أقطعه عما هو عليه فتركته وانصرفت . قال فجئت فوجدت الأمير قد تهيأ للركوب وهو ينتظرنى فلما رآنى قال : هيه يا أبا بكر ! . قلت أرجو أن يستجيب الله تعالى فيك كل دعوة صالحة دعيت لك فى هذه الليلة وفى هذا اليوم الشريف . فقال الحمد لله الذى جعلنى سببا لايصال الراحة إلى عياله . ثم أخبرته بامتناع ابن جاباز فقال : هو جديد لم تجر بيننا وبينه معاملة قبل هذا اليوم . ثم قال لى عد اليه واركب دابة من دواب النوبة فلست أشك فيما لقيت دابتك فى هذه الليلة من التعب ، ثم امعن إليه وأطرق بابه ، فاذا نزل اليك فانه سيقول . ألم تكن عندنا ! ؟ فلا ترد عليه جوابا ثم استفتح واقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم « طٰهٰ * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمٰوٰتِ الْعُلَى * الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرٰى » يا ابن جاباز يقول لك كافور :

ومن كافور العبد الأسود ؟ ومن مولاه ؟ ومن الخلق ؟ بقى لأحد مع الله تعالى ملك أو شركة ؟ تلاشا الناس كلهم . ها هنا تدرى من معطيك ، وعلى من رددت . أنت ما سألت . هو أرسل اليك يا ابن جاباز ، ما تفرق بين السبب والمسبب ؟! » قال أبو بكر : فركبت وسرت فطرقت منزله فنزل إلى وقال لى مثل لفظ كافور فأضربت عن الجواب وقرأت « طه . . . . . » ثم قلت ما قال كافور . فبكى ابن جاباز ، وقال أين ما حملت ؟ فأخرجت له الصرة فأخذها وقال : علمنا الأستاذ كيف التصرف . قل له : أحسن الله جزاك ! قال فعدت اليه فأخبرته فسر بذلك ثم سجد لله شكراً وقال : الحمد لله الذى جعلنى سبباً لايصال الراحة إلى عياله ثم ركب حينئذ »[١].

وكان لكافور فى بلاطه الف وسبعون من الغلمان الترك والفان من الغلمان الروم وكان له غلمان آخرون من المولدين والسودانيين ، وكان عدد غلمان بلاطه كلهم أربعة آلاف غلام . ويقال إن كافورا خلف فى خزانته بعد وفاته ماقيمته نحو مليون دينار من الجواهر والثياب والسلاح والأمتعة[٢] ، وإنه كان يرسل كل عام المال والطعام والثياب مع ركب الحجاج ليوزع فى الحجاز على أولاد رسول الله (صلعم)[٣] .

وكان كافور كريما حتى مع أعدائه ومن لا يستحقون منه العطف والتقدير . ومما يروى فى هذا الصدد أن واعظا فى مصر كان يقص على الناس فقال يوما فى قصصه : انظروا إلى هوان الدنيا على الله تعالى فإنه أعطاها لمقصوصين ضعيفين : ابن بويه ببغداد وهو أشل ، وكافور عندنا بمصر وهو خصى . فنقل إلى كافور قول هذا الواعظ وظنوا أنه يعاقبه ، ولكنه أرسل إليه خلعة ومائة دينار وقال : « لم يقل هذا إلا لجفائى

---

(١) جمال الدين ابن ظافر الازدى : الدول المنقطعة الورقة ٣٧ و٣٨ من الصورة المحفوظة فى دار الكتب المصرية والمنقولة بالتصوير الشمسى عن المخطوط المحفوظ فى المتحف البريطانى .

(٢) ابن ظافر الازدى عن Wüstenfeld : Die Statthalter p. 59 ، أما المقريزى فقد بالغ فى تقدير ما خلفه كافور فذكر أنه قوم بستمائة مليون دينار (الخطط ج ٢ ص ٢٧) . أنظر أيضاً ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٢٠٠

(٣) ابن ظافر الازدى فى Wüstenfeld : Die Statthalter p. 59. وأنظر ابن الزيات: الكواكب السيارة ص ١٩٩

له وكان الواعظ يقول بعد ذلك فى قصصه : ما أنجب من ولد حام إلا ثلاثة ، لقمان وبلال المؤذن وكافور [١] .

وكان كافور قويا شديد الساعد لا يكاد أحد يمد قوسه . وكان غروره واعتزازه بنفسه فى هذه الناحية من مواطن الضعف فيه فكان يرضى عمن يظهر العجز عن منافسته فى الرمى ويعبس لمن يجرأ على الاستهانة بتفوقه أو يطمع فى مساجلته [٢] . وكان مغرما بالخروج إلى الصيد [٣] .

وكان لكافور شهرة عظيمة فى فنون القتال أشار إليها الشعراء فى مدائحهم له . فلا عجب اذا فخر الفاطميون بالاحتفاظ بسيفه فى خزائنهم [٤] .

ويقال إن كافورا كان يداوم الجلوس صباحا ومساء لقضاء حوائج الناس ، وكان يتهجد ويمرغ وجهه ساجداً ويقول : اللهم لا تسلط على مخلوقا [٥] .

ويروى بعض المؤرخين أنه كان يحن إلى موسيقى السودانيين وإنه مر ذات يوم بجماعة منهم وهم يطبلون الطبل السودانى المعروف بالدبدبة فطرب لذلك كافور ونسى نفسه وحرك أكتافه على أنغام الدبدبة ثم تذكر نقد الناس لحركاته هذه فأخذ يهز أكتافه فى مناسبات كثيرة كى يظن الناس أنه لم يهزها فى ذلك المكان بسبب الدبدبة بل كان ذلك عادة عنده [٦] . وقيل إن كافورا كان له فى قصره جوار مغنيات [٧] .

وحرص كافور على أن يكون بلاطه مجمع العلماء والأدباء وأن يفوق فى هذا الميدان بلاط الخليفة وبلاط سيف الدولة . فكان الأدباء والمؤرخون يقرأون له كتب السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية ، وكان له نظر فى الأدب والعلم وفروع اللغة

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٥
(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤١٧ ، وزكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٥٥
(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦
(٦) ابن سعيد : المغرب ص ٤٨ وابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٤٣
(٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦

العربية [١] . وسوف نعود الى الكلام على الشعراء والأدباء والعلماء المصريين الذين اتصلوا به ، ولكننا نعرض الآن لما كان له بينه وبين المتنبي .

والمعروف أن المتنبي كان متصلا بسيف الدولة الحمداني وقال فى مدحه قصائد خالدات . ولكن أمرا حدث بينهما أدى إلى أن يبحث المتنبي عن سيد آخر يرعاه . ولعله سمع ببلاط كافور وما يلقاه الشعراء والأدباء من تقدير وإكرام فيه فعقد العزم على أن يمم شطر مصر [٢] . وقيل إن كافورا كتب إليه يستدعيه إلى بلاطه [٣] .

وقابل المتنبي فى الرملة — فى طريقه الى مصر — الأمير أبا محمد الحسن بن عبيد الله ابن طغج ومدحه بعدة قصائد ، منها القصيدة التى مطلعها :

أَنا لائِمِي إِنْ كُنْتُ وَقْتَ اللَّوائِمِ عَلِمْتُ بِما بِي بَينَ تِلكَ المَعالِمِ [٤]

ومن أبياتها :

أَرَى دُونَ ما بَينَ الفُرَاتِ وبَرْقَةٍ ضِرَاباً يُمشِّي الخَيْلَ فَوقَ الجَماجِمِ
وطَعنَ غَطارِيفٍ كأَنَّ أَكُفَّهُم عَرَفْنَ الرُّدَينِيَّاتِ قَبلَ المَعاصِمِ
حَمَتْهُ عَلَى الأَعداءِ مِن كُلِّ جانِبٍ سُيُوفُ بَنِي طُغْجَ بنِ جُفِّ القَماقِمِ
هُمُ المُحْسِنُونَ الكَرَّ فِي حَومَةِ الوَغَى وأَحْسَنُ مِنهُ كَرُّهُمْ فِي المَكارِمِ
وَهُمْ يُحْسِنُونَ العَفوَ عَن كُلِّ مُذنِبٍ ويَحتَمِلُونَ الغُرْمَ عن كُلِّ غارِمِ

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦

(٢) قيل ان الذى حمس المتنبي حتى رحل إلى مصر أنه سمع أن محمد بن عاصم الشاعر أنشد كافورا قصيدة على أثر زلزلة عظيمة وقعت بمصر ومن أبياتها :

ما زلزلت مصر من خوف يراد بها لكنها رقصت من عدله طربا

وأن كافورا أجازه على هذه القصيدة بألف دينار . ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥ وابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٤٤

(٣) ابن ظافر الازدى : المرجع السابق ص ٦٠ وديوان المتنبي ص ٣٧٣

(٤) ديوان المتنبي ص ١٧٧

حَيِيُّونَ إِلاَّ أَنَّهُم فى نِزَالِهِم أَقَلُّ حَيَاءً من شِفَارِ الصَّوارِمِ
ولَولا احتِقارُ الأُسْدِ شَبَّهْتُهُم بِها ولٰكِنَّها مَعْدُودَةٌ فى البَهَائِمِ

ووصل المتنبي إلى مصر سنة ٣٤٦ [١] ، وقيل إنه صرح قبل قدومه أنه إذا دخل مصر لا يقصد العبد (كافورا) وإنما يقصد مولاه (أونوجور) [٢] . ولم يكن هذا أول عهد المتنبي بالاخشيديين فالراجح أنه حين اتهم بادعاء النبوة فى بادية السماوة قبض عليه ابن لؤلؤ نائب الاخشيد فى حمص وحبسه ثم استتابه وأطلقه [٣] . كما يروى له بعض الشعر فى رثاء محمد بن طغج الاخشيد [٤] .

ومهما يكن من الأمر فان كافورا رحب بالمتنبي وأخلى له دارا وخلع عليه وحمل اليه كثيرا من المال ، فقال المتنبي فى مدحه قصيدته المشهورة التى مطلعها :

كَفَى بِكَ داءً أَنْ تَرى المَوتَ شافِيا وحَسْبُ المَنايا أَنْ يَكُنَّ أَمانِيا [٥]

ومن أبياتها :

قَواصِدَ كافُورٍ تَوارِكَ غيرِهِ ومَن قَصَدَ البَحرَ استَقَلَّ السَّواقِيا
فجاءَتْ بنا إنسانَ عينِ زمانِهِ وخَلَّتْ بَياضاً خَلفَها ومَآقِيا
أَبا كُلِّ طِيبٍ لا أَبا المِسكِ وَحدَهُ وكُلِّ سَحابٍ لا أَخُصُّ الغَواديا
إذا كَسَبَ الناسُ المَعالِيَ بالنَّدَى فإِنَّكَ تُعطِى فى نَدَاكَ المَعاليا
وغَيرُ كَثيرٍ أَنْ يَزُورَكَ راجِلٌ فيَرجِعَ مِلْكاً لِلعِراقَينِ والِيا

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥
(٢) ابن ظافر الازدى : المرجع السابق ص ٦٠
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥ ودائرة المعارف الاسلامية مادة المتنبي (ج ٣ ص ٨٣٥ من الطبعة الفرنسية) .
(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٤٣
(٥) مما يشهد لكافور بسلامة الذوق الأدبى أنه قال معلقاً على مطلع هذه القصيدة « ما ينبغى لمن يقصد الملوك فى نجاح حاجة أن يكون خطابه لهم أول ما يخاطبهم به مثل هذا » ابن سعيد : المغرب ص ٤٧

مَدًى بَلَّغَ الأُستَاذَ أَقصاهُ رَبُّهُ ونَفسٌ لَهُ لم تَرضَ إلا التناهِيا
دَعَتْهُ فلَبَّاها إلى المَجدِ والعُلَى وقد خَالفَ الناسُ النُّفُوسَ الدَّواعِيا
فأصبَحَ فَوقَ العَالَمِين يَرَوْنَهُ وإنْ كانَ يُدنِيهِ التَّكَرُّمُ نائِيا (١)

وظل المتنبى فى بلاط كافور يقول فى مدحه القصيدة السنية بعد الأخرى . ومن بعض أبيات تلك القصائد ما يصف كافورا والحالة السياسية على عهده وصفا قد يكون فيه شيء من المبالغة ، ولكن له معناه على كل حال . ومن ذلك قوله :

تَرَعرعَ المِلكُ الأُستاذُ مُكتَهِلاً قَبلَ اكْتِهالٍ أَدِيباً قَبلَ تَأديبِ
مُجَرَّباً فَهِماً مِن قَبلِ تَجرِبةٍ مُهَذَّباً كَرَماً مِن غَيرِ تَهذيبِ
حَتَّى أَصابَ من الدُّنيا نِهايَتَها وهَمُّهُ فى ابتداءاتٍ وتَشْبيبِ
يُدبِّرُ المُلكَ من مِصرٍ إلى عَدَنٍ إلى العِراقِ فأَرضِ الرُّومِ فالنُّوبِ (٢)

ومن ذلك قوله فى قصيدة أخرى :

وأَخْلاقُ كافُورٍ إذا شِئتُ مَدْحَهُ وإنْ لم أَشَأْ تُملِي عَلَيَّ وأَكتُبُ
إذا تَرَكَ الإنسانُ أهلاً وَراءَهُ وَيَمَّمَ كافوراً فَما يَتَغَرَّبُ
فَتًى يَملأُ الأَفعالَ رأْياً وحِكمَةً ونادِرةً أحيانَ يَرضَى ويَغضَبُ (٣)

وهى القصيدة التى جاء فيها :

إذا لم تَنُطْ بِي ضَيعةً أو وِلايةً فَجُودُكَ يَكسونى وشُغلُكَ يَسلُبُ

---

(١) ديوان المتنبى ص ٣٧٣ — ٣٧٧
(٢) المرجع نفسه ص ٣٨١ — ٣٨٢
(٣) المرجع نفسه ص ٣٩٨ — ٣٩٩

وقد لج كافور على قلة إرضائه للمتنبي وكونه لا يوليه ولاية حتى قال هذا البيت فقال كافور : « ياقوم ! رجل ادعى النبوة مع خير البشر صلى الله عليه وسلم كيف يوليه كافور فيأمنه ! »[١].

ومن أبيات تلك القصيدة قول المتنبي يخاطب كافورا ويشير إلى أونوجور :

وأنتَ الّذى رَبَّيتَ ذا المُلكِ مُرضَعاً ... ولَيسَ لهُ أُمٌّ سِواكَ وَلا أَبُ
وكُنتَ لَهُ لَيثَ العَرِينِ لِشبلِهِ ... ومالَكَ إلاَّ الهِندُوانى مِخلَبُ
لَقِيتَ القَنَا عَنهُ بنَفسٍ كَرِيمةٍ ... إلى المَوتِ فى الهَيجَى منَ العارِ تَهرُبُ
سَلَلتَ سُيُوفاً عَلَّمَتْ كُلَّ خاطِبٍ ... على كُلِّ عُودٍ كَيفَ يَدعو ويَخطُبُ
ويُغنيكَ عَمَّا يَنسُبُ الناسُ أَنَّهُ ... إلَيكَ تَناهَى المَكرُماتُ وتُنسَبُ
وأىُّ قَبِيلٍ يَستَحِقُّكَ قَدرُهُ ... مَعَدُّ بنُ عَدنانٍ فِداكَ ويَعرُبُ[٢]

ولكن المتنبي كان يطمع من كافور بأكثر مما نال من عطاء وكان يرجو أن ينصبه كافور واليا على إقليم من دولته،فلا عجب إذا تضاءل حماس المتنبي لهذا الأمير . والواقع أن آخر قصيدة أنشدها فى حضرته ولم يلفه بعدها تنذر بنفاد صبره وتؤذن بالقطيعة بينهما . ومن أبيات هذه القصيدة :

وفى النَّفسِ حاجاتٌ وفِيكَ فَطَانَةٌ ... سُكوتى بَيانٌ عِندَها وخِطابُ
وَما أنا بالباغى على الحُبِّ رِشوةً ... ضَعيفُ هَوًى يُبغَى عليه ثَوابُ
وَما شِئتُ إلا أنْ أَدُلَّ عَواذِلى ... على أَنَّ رَأْيى فى هَواكَ صَوابُ
وأُعلِمَ قوماً خالَفُونى فَشَرَّقوا ... وغَرَّبتُ أَنِّى قد ظَفِرتُ وخابوا
وما كُنتُ لَولا أنتَ إلا مُهاجِراً ... لهُ كُلَّ يَومٍ بَلدَةٌ وصِحابُ[٣]

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٧ وابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥
(٢) ديوان المتنبي ص ٤٠٠
(٣) المرجع نفسه ص ٤١٠

وقيل ان المتنبي « أقام بعد إنشاء هذه القصيدة سنة لا يلقى كافورا غضبا عليه لكنه يركب فى خدمته خوفا منه ولا يجتمع به ، واستعد للرحيل فى الباطن وجهز جميع ما يحتاج اليه »[١] .

وقال المتنبي فى يوم عرفة سنة ٣٥٠ هـ قبل مغادرته مصر بيوم واحد قصيدته الدالية المشهورة التى هجا فيها كافور . ومطلعها :

عِيدٌ بأَيَّةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ ... بِما مَضَى أَمْ لِأَمرٍ فيكَ تَجديدُ

ومن أبياتها :

إنّى نَزَلْتُ بكذَّابينَ ضَيْفُهُمُ ... عَنِ القِرَى وعَنِ التَّرْحالِ مَحْدودُ

جُودُ الرِّجالِ منَ الأَيْدِى وجُودُهُمُ ... منَ اللسان فلا كانُوا ولا الجُودُ

أَكلَّما اغتالَ عَبدُ السَّوْءِ سَيِّدَهُ ... أَو خانَهُ فَلَهُ فى مِصر تَمهيدُ

صارَ الخَصِيُّ امامَ الآبقينَ بها ... فالحُرُّ مُستَعبَدٌ والعَبدُ مَعبُودُ

لا تَشْتَرِ العَبدَ إلاَّ والعَصا مَعَهُ ... إنَّ العَبيدَ لأَنجاسٌ مَناكيدُ

مَن عَلَّمَ الأَسودَ المَخصِىَّ مَكرُمَةً ... أَقَومُهُ البِيضُ أم آباؤُهُ الصِّيدُ

أَمْ أُذْنُهُ فى يَدِ النَّخَّاسِ دامِيَةً ... أَم قَدْرُهُ وَهْوَ بِالفَلَسَينِ مردُودُ

وذَاكَ أَنَّ الفُحولَ البِيضَ عاجِزَةٌ ... عن الجَميلِ فكيفَ الخِصْيَةُ السُّودُ[٢]

ونظم المتنبي قصائد أخرى كثيرة فى هجاء كافور[٣] . وقيل انه لما فر من مصر كتب ورقة فيها هجو لكافور ووصلت الورقة إلى يد هذا الأمير فأمر باحراقها ولم يقف على ما فيها « فكان ذلك مما استحسن له »[٤] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٦ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٨

(٢) ديوان المتنبي ص ٤٣١ — ٤٣٤

(٣) ديوان المتنبي ص ٤٢٧ — ٤٣٧ وانظر أيضاً « المصريات الكافوريات » فى ديوان المتنبي (طبع ديتريشى فى برلين سنة ١٨٦١) ص ٦٢٣ وما بعدها .

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٤٨

ومما يلقى بعض الضوء على علاقة المتنبي بكافور ويفسر حذر الأمير وعدم اطمئنانه إلى هذا الشاعر أن كافوراً كان له منافس من بين قواد الاخشيد : هو أبو شجاع فاتك الرومي الاخشيدي . وكانت له حظوة عند الاخشيد ولكن فيه طيشاً وخفة حتى كان يعرف بالمجنون « فكان كلما تزايد أمر كافور وعظم يزيد جنون فاتك وحسده فلا يلتفت كافور إليه بل يدر عليه الإحسان ويراعيه إلى الغاية . وكان الفيوم إقطاع فاتك المجنون فاستأذن فاتك كافورا أن يتوجه إلى إقطاعه بالفيوم ويسكن هناك حتى لايرى عظمة كافورفأذن له كافور فى ذلك وودعه. فخرج فاتك إلى الفيوم فلم يصح مزاجه بها لوخامتها فعاد بعد مدة مريضاً إلى مصر ليتداوى بها ، وكان المتنبي الشاعر بمصر قد مدح كافوراً بغرر القصائد ، فسمع المتنبي بكرم المجنون فأحب أن يمدحه ولم يجسر خوفاً من كافور . وكان كافور يكره فاتكا فى الباطن ويخافه . وصار فاتك يراسل المتنبي ويسأل عنه إلى أن اتفق اجتماعهما يوما بالصحراء وجرت بينهما مفاوضات ، فلما رجع فاتك إلى داره بعث إلى المتنبي بهدية قيمتها ألف دينار ثم أتبعها بهدايا أخر . فاستأذن المتنبي كافوراً فى مدح فاتك فأذن له خوفا من فاتك وفى النفس شيء من ذلك ، فمدحه المتنبي بقصيدته التى أولها :

لا خَيلَ عِندَكَ تُهدِيها وَلا مالُ فَليُسعِدِ النُّطقُ إنْ لم تُسعِدِ الحالُ [1]

إلى أن قال :

كَفاتِكٍ ودُخولُ الكافِ مَنقَصةٌ كالشَّمسِ قُلتُ وما لِلشَّمسِ أَمثالُ

فحقد كافور على المتنبي لذلك » [2] .

* * *

وقد رأينا فى الباب السابق أن أولى الأمر فى مصر اتفقوا بعد وفاة كافور على تولية أبى الفوارس أحمد بن على الاخشيد وكان فى الحادية عشرة من عمره . ودعى له

(١) ديوان المتنبي ص ٤١٤ — ٤١٥

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤ — ٥

على المنابر ثم من بعده للحسن بن عبيد الله . ثم عقد للحسن بن عبيد الله على بنت عمه فاطمة بنت الاخشيد بوكيل سيّره من الشام[١] .

وعاد الحسن بن عبيد الله من الشام وقبض على مقاليد الامور فى البلاد بعد أن سجن الوزير جعفر بن الفرات وصادر أملاكه[٢] . ولكنه ما لبث أن أطلق هذا الوزير وفوض إليه تدبير الامور ثم سافر ثانية إلى الشام .

بيد أن الجيوش الفاطمية كانت لمصر بالمرصاد واستطاعت أن تدخلها فاتحة ، وقبض على أحمد بن على الاخشيد ومات بعد قليل . ولكن المؤرخين لم يعنوا بالتحدث عن مصيره اما لصغر سنه أو احتقارا لشأنه لأنه لم يكن له من الأمر شيء[٣] . وعلى كل حال فإن ابن سعيد لم يذكر عن نهايته أكثر من الاشارة إلى أنه « مات من علة صادفت وقتا ظن الناس فيه أنه قتل »[٤] .

* * *

بقى علينا أن نذكر القليل الذى نعرفه عن أمراء البيت الاخشيدى الذين لم يتولوا حكم مصر .

ولا ريب فى أن أعظم هؤلاء الأمراء هو أبو المظفر الحسن بن طغج . وقد كان أميرا جليلا عرف بالشجاعة والكفاية فى الأعمال التى عهد بها إليه . وكان أخوه الاخشيد يستخلفه على حكم مصر حين يغادرها الى الشام ، ففعل ذلك حين خرج لقتال ابن رائق سنة ٣٢٨ هـ[٥] ، وكذلك حين خرج إليها سنة ٣٣٠[٦] ، وحين خرج للقاء الخليفة المتقى سنه ٣٣٢[٧] وإن كان ابن سعيد يذكر نقلا عن ابن زولاق أن الاخشيد استخلف

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠
(٢) المرجع نفسه ج ٤ ص ٢٣
(٣) المرجع نفسه ج ٤ ص ٢٤
(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٤٦
(٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٩ وابن سعيد : المغرب ص ٢٥ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢
(٦) ابن سعيد : المغرب ص ٢٩
(٧) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٢ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٤

هذه المرة ابنه أونوجور واستخلف له عمه الحسن بن طغج [١] ، وكأنما أراد الاخشيد أن يحدد نظام وراثة العرش بعده ، وأن يثبت البيعة التى أخذها لابنه بولاية العهد سنة ٣٣١ فجعله نائبه الرسمى فى مصر ولكنه استخلف له عمه الحسن بن طغج لتكون بيده مفاليد الأمور فى غيبة أخيه الاخشيد . والراجح أن هذا هو الذى حدث سنة ٣٣٣ حين خرج الاخشيد لقتال سيف الدولة ، فابن سعيد ينقل عن ابن زولاق أن الاخشيد استخلف على مصر ابنه أبا القاسم واستخلف له عمه الحسن بن طغج [٢] . أما أبو المحاسن فلا يحفل بهذا « البروتوكول » إنما يذكر أن الاخشيد استخلف أخاه أبا المظفر الحسن بن طغج على مصر [٣] .

وكان الاخشيد يعتمد على أخيه الحسن بوصفه قائدا من كبار قواده ذوى الخبرة والشجاعة . ومن المهمات الحربية التى بعثه فيها ما حدث سنة ٣٢٤ هـ حين بعثه ومعه القائد صالح بن نافع الى الاسكندرية لقتال جيش المغاربة [٤] . كما كان للحسن بن طغج فضل كبير فى القضاء على ثورة غلبون التى سيأتى الكلام عليها . فان الحسن بن طغج ، بعد أن رجع من عند ابن أخيه الأمير أونورجور من الشام ، طارد غلبون حتى ظفر به وقتله [٥] .

وقد ولى الحسن بن طغج امرة دمشق من قبل أخيه الاخشيد فترة من الزمن ثم عزله الاخشيد وولى أخاه عبيد الله بن طغج مكانه . ثم ولى الحسن هذا امرة دمشق مرة أخرى من قبل ابن اخيه أونوجور سنة ٣٣٧ ، ثم نقل الى امرة اقليم الرملة ومات بها سنة ٣٤٢ هـ ودفن بالقدس [٦] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٠
(٢) المرجع نفسه ص ٤٢
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٥
(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٧ — ٢٨٨
(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٩٢
(٦) المرجع نفسه ج ٣ ص ٢٩٧ وص ٣١٠

وفى مجموعة الارشيدوق رينر فى ڤينا وثيقة على ورق تتضمن سجلا من الحسن ابن طغج الى رجلين أحدهما اسمه محمد بن ربيعة بشأن تأجير ستة أفدنة بخمسة عشر دينارا وهى بالعربية واليونانية [١] . وقد تفضل الأستاذ أدولف جرومان فأطلعنى على صورة هذه الوثيقة ورأيت أن اسم المستأجر الثانى لم يبق منه الا كلمة « الوارث » ولعلها جزء من اسم « عبد الوارث » .

أما أبو النصر الحسين بن طغج فكان من قواد أخيه الاخشيد وكان على رأس جنده فى الشام حين باغتهم ابن رائق وقتل أبا نصر الحسين . وأراد ابن رائق مسالمة الاخشيد فحنط جثة الحسين بن طغج وجعلها فى تابوت وأنفذه الى الاخشيد معزيا ومعتذرا بأنه ما أراد قتله وأرسل معه ابنه مزاحم بن محمد بن رائق عارضا أن يكون فدية للقتيل اذا أراد الاخشيد ذلك [٢] . وقد مر بنا أن الاخشيد أكرم مزاحما وجنح الى السلم مع ابن رائق .

وممن اشتهر من أسرة الاخشيد أخوه عبيد الله بن طغج وقد كان من كبار أعوانه فى الادارة وقيادة الجند . والظاهر أنه كان شديد الاعتداد بنفسه حريصا على كرامته فهو مرة يرفض ألا يسير بين يدى أخيه الاخشيد كاحد الحجاب ويحرص على أن يركب خلفه حين ركب لأول مرة الى الجامع العتيق [٣] . ونراه مرة أخرى لا يقبل أن يترجل للاخشيد عند رؤيته إلا بعد أن ألح عليه كاتبه الخاص الحسن بن جابر وأفهمه أن الاخشيد هدد بقتل هذا الكاتب اذا لم يترجل صاحبه عبيد الله بن طغج عند رؤيته [٤] .

وكان عبيد الله بن طغج يعاون أخاه الاخشيد فى قتال أعدائه [٥] . وعرض الاخشيد بعد اتمام الصلح بينه وبين ابن رائق أن يكون عبيد الله رهينة عند ابن رائق

---

(١) Papyrus Erzherzog Rainer. Führer durch die Ausstelung No. 967 p. 253.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٣

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١٣

(٤) المرجع نفسه ص ٣٨

(٥) المرجع نفسه ص ١٤ و ٢٥

ومزاحم بن محمد بن رائق رهينة عند الاخشيد ليقوم كل منهما بما تعهد به فى هذا الصلح ، ولكن الظاهر أن عبيد الله بن طغج لم يقبل هذه المهمة فاحتج الاخشيد بأن غلمان أخيه كرهوا مفارقته ومنعوه من مغادرتهم وعرض أن يرجع مزاحم إلى أبيه محمد بن رائق إلى أن يرسل الاخشيد ابنه أونوجور ليكون رهينة بدلا من عمه عبيد الله . بيد أن هذا التبادل لم يتم [١] .

ويبدو أن عبيد الله بن طغج كان ذا ثروة كبيرة فى حمص مشاركة مع أخيه الاخشيد [٢] وأن اقليم الشام كان ميدان نشاطه بوجه عام فقد كان يقيم فى الرملة وتوفى بها فى جمادى الآخرة سنة ٣٣٣ هـ [٣] .

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٩
(٢) المرجع نفسه ص ٣٢
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٢

openkandil.com

(٣)

موظفو البـــلاط

الحـاجب

كانت وظيفة الحاجب من الوظائف السامية فى بلاط الخلفاء والأمراء [١] . ولم يكن عمله وقفا على إدخال الناس على الأمير فى مواعيد محددة ، بل كان يشبه عمل كبير الأمناء فى عصرنا الحالى .

ويقال ان الاخشيد اتخذ عمران بن فارس حاجباً له . وكان عمران حاجباً لتكين والى مصر قبيل العصر الاخشيدى . ويروون أن لاستحجاب الاخشيد إياه قصة طريفة . ذلك أن الاخشيد كان فى دار تكين ذات يوم وكان هناك عدد من الأتراك والقواد ووجوه القوم ينتظرون الاذن للدخول على الوالى . ولما أقبل حاجبه عمران بن فارس حيا الناس ودخل على تكين ليستأذن لهم فى الدخول . فقال جماعة منهم تعريضا بعمران : أى كبش ما أسمنه ليت شعرى من يجزره ! فقال محمد بن طغج : « أنا أجزره » .

ومرت الأيام وولى ابن طغج حكم مصر وكان عمران بن فارس بالشام ، فاستدعاه الاخشيد واتخذه حاجبا له . ولكنه ما لبث أن صادر أمواله وأخذ منه عدداً كبيراً من العبيد والخيل والأتباع [٢] .

وقد يكون لهذه القصة نصيب من الصحة . ولكن الراجح أن الاخشيد استحجب عمران لاعجابه بجلال مظهره وحسن درايته . ومهما يكن من الأمر

---

(١) راجع ابن خلدون : المقدمة (الفصل الرابع والثلاثون فى مراتب الملك والسلطان وألقابهما . . . الحجابة) والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٩ — ٢٢٢ ، والقلقشندى : ضوء الصبح المسفر ص ٢٤٧ و Van Berchem ; Corpus Inscriptionum Arabicarum. Egypte 1, pp. 567-568; Zaky Hassan : Les Tulunides p. 193 ; Wiet : Précis de l'histoire d'Egypte 11. p. 245.

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٨

فان عمران بن فارس جمع ثروة طيبة كما يتبين من ذكر ما صادره الاخشيد حين انقلب عليه [١].

ويقال ان الذى خلف عمران بن فارس فى منصب الحجابة للاخشيد هو غلامه فاتك الرومى [٢] ، الذى علا شأنه فى بلاط الاخشيديين حتى ولى امرة دمشق حينا من الزمن . وقد مر بنا أن المتنبي مدحه بقصيدة عصماء أوغرت صدر كافور على أمير الشعراء . ونضيف هنا أن أبا شجاع فاتكا توفى سنة ٣٥٠هـ وأن المتنبي رثاه بعد خروجه من مصر بقصيدتين جاء فى إحداهما :

قُبحاً لِوَجهكَ يا زَمانُ فإنَّهُ وَجهٌ لَهُ مِن كُلِّ قُبحٍ بُرقُعُ

أَيَمُوتُ مثلُ أبِي شُجاعٍ فاتِكٍ ويَعِيش حاسِدُهُ الخَصِيُّ الأَوكَعُ

أَيْدٍ مُقطَّعَةٌ حَوالَىْ رَأْسِهِ وَقَفاً يَصِيحُ بِها ألاَ مَنْ يَصْفَعُ [٣]

والظاهر أن فاتكا الرومى كان عظيم الشأن فى بلاط الاخشيد وكان أكبر منافس لكافور ، ولكن تم النصر للأخير بعد وفاة الاخشيد فاعتزل فاتك الحياة العامة وعاش فى اقطاعه بإقليم الفيوم عيشة أمراء الاقطاع ، ولاعجب فقد كان كافور «يخافه ويكرهه» كما يقول أبو المحاسن .

ولسنا نعرف على وجه التحقيق من تولوا منصب الحجابة لأمراء مصر بعد الاخشيد ولكن كافورا كان شديد الحرص على مظاهر البروتوكول فى بلاطه حتى قيل« إنه كان عظيم الحرمة وله حجاب يمتنع عن الأمراء » [٤].

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص١٦

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٩

(٣) ديوان المتنبي ص ٤٢١

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦

الحرس الخاص

رأينا عند الكلام على الاخشيد أنه اتخذ بضعة آلاف من المماليك حرسا خاصا له وأن الفين منهم كانوا يحرسونه كل ليلة . ولا شك أن فى هذه الرواية شيئا من المبالغة ، ولكن لعل المقصود أنهم كانوا يحرسون قصر الأمير وثكنات حرسه . والراجح أن الأمراء الاخشيديين — ولاسيما محمد بن طغج ثم كافور — كانوا يؤلفون حرسهم الخاص من آلاف من الجند تشبها بالخلفاء والملوك وكبار الأمراء فى أنحاء العالم الاسلامى .

الخازن

ومن وظائف البلاط فى العصر الاخشيدى وظيفة الخازن، والراجح أنه كان يتولى أمر خزانة الأمير ويشرف على ما فى قصره فضلا عن ادارة ممتلكاته الخاصة . ولعله يشبه صاحب بيت المال فى العصر الفاطمى [١] والخازندار فى العصر المملوكى [٢] وناظر الخاصة فى عصرنا الحالى . وممن شغل هذه الوظيفة محمد بن عبد الله الخازن ، وقد شغلها على عهد الاخشيد نفسه . وكان عظيم السلطان وله عدد من الأعوان والمساعدين [٣] . ولسنا نعرف هل هو محمد الخازن الذى أشار إليه أبو صالح الأرمنى وذكر أنه كان يعيش فى أيام كافور الاخشيدى [٤] .

طبيب البلاط

ومن الوظائف الرئيسية فى بلاط الاخشيديين وظيفة طبيب الأمير . وقد وصل الينا اسم طبيب الاخشيد . وهو ابو الفرج الباسى ، وعرفنا أنه كان يقيم فى قصر الأمير دائما وكان يصحبه فى أسفاره [٥] ويشرف على ألوان الطعام الذى كان يقدم إليه ويمنع مالا يصلح منها لحالة الأمير الصحية [٦] .

---

(١) راجع القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٥

(٢) المرجع نفسه ج ٥ ص ٤٦٢ — ٤٦٣ ، وعلى ابراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك ص ٢٠١

(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣٠ — ٣١

(٤) تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى ص ١٢٢

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ٤٣

(٦) المرجع نفسه ص ٣٦

سائر الوظائف

وطبيعى أن بلاط الأمير وقصره كان يضم عددا كبيرا من مختلف الموظفين والخدم والفراشين اللازمين لمطابخه وخزائنه واصطبلاته وأصحاب صيده وما إلى ذلك مما لا حاجة إلى تفصيل الكلام عليه [١] .

(١) راجع فى هذه المناسبة ما جاء عن قصر الخليفة وبلاطه ببغداد فى هلال الصابى : الوزراء تاريخ ص ١٥ — ١٩

obeikandl.com